قصص

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

محيي الدين اللباد

مي التلمساني

نحت متكرر

سرقيات

نحت متكرّر

الطبعة الأولى ، ١٩٩٥

© دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدق ، من شارع هدى شعراوى
باب اللوق ، القاهرة
س : ت ٢٦٩١٩٨ ت ٣٩٠٢٩١٣

تصميم الغلاف محيى الدين اللباد

نحت متكرّر

مي التلمساني

دار شرقيات للنشر والتوزيع

إلى وليد الخشّاب..

المنحوتة صورته هناك.

نحت متکرر

ليل أول:

وسادة صغيرة استقرت وفي منتصفها فجوة ملأها رأسك المستدير. تحت الرأس يد صغيرة تحمل ترهل الخدين في سحبة النوم الأخيرة. والساقان ترسمان علامة تساؤل لابد منها حين يتساوى الواقع بحلم قادم خلف الجفون المسدلة. تتبعثر ثنايا الملاءة وتتداخل مع الغطاء المبعد عند أطراف الفراش. الحر شديد والنافذة مفتوحة المصراعين تنبيء بليل معتم.في انتظام حركة الصدر إنذار ببداية الحلم. أتركك وفي قلبي رغبة في المشاهدة. لن تتحقق. وفي حلقي أثر أنفاس شربتها منك.

رجل كبير يشبه أبي يحمل سلة مليئة «بالفلفل الأخضر». عند الباب هناك يترك كلبنا الصغير الأبيض اللون. يهز رأسه وذيله في حركة ميكانيكية. تتهاوى أستار الغرفة حين يهب النسيم الشاحب فترسم أجساداً لينه كالحرير. السلة الصفراء تهبط فوق مائدة وحيدة ويخرج من بين شقوقها أرجل ضفادع خضراء كبيرة. نقنقات وأصوات أخرى.

أصحو من نومي فجأة على صوت اسمي يأتي من الغرفة المجاورة. في تكاسل الليل الذي خيم على قلعتنا الحصينة أسمع صوت أقدامك الصغيرة الحافية في ترنحها عبر الممر. إلينا تأتي وتدس رأسك بين نهدي. أحملك وأستدير. لا أجروء على مد يدي خارج حدود القلعة. فالضفادع الكبيرة

هناك لازالت. وأنت همزة وصل أكيدة بيني وبين أبيك الراقد هنا. بالفعل.

يقول الأمير الذي كان على هيئة السحر ضفدعاً إنه أحب الفتاة ذات الشعر القرمزي. ويطوي طرف ثيابه المتراكمة في حركة نبل أخيرة. أبي هذا الذي يفرغ سلاله عند مائدة الحجرة الوحيدة يتسم. حين تسقط ثمرة فلفل وحيدة على مربع وحيد يعلن عن وجود الأرض ينحني أبي. أمد يدي فلا ألتقط سوى يده. وأفزع.

تهبط يدك على وجهي في حركة تثاؤب عند اقتراب الفجر. وأشعر بقدمك المستقرة بين ساقي تتمدد كثعبان صغير ألف هذا التجويف. نظرة خاطفة على ستائر الغرفة المسدلة تنبئني بالوقت. أبتعد عن جسدك الذي يهبط بيننا في الوادي البعيد لاحقة بأطراف الحلم والفزع. (ترى ماذا يحدث بعد ذلك ؟).

تخفت الأصوات القادمة من صنبور الماء البعيد. وأعي أني كنت استرد خيوط الحلم الأخيرة حين تلتصق بي وتتمدد بطول ظهري المنحني. كاليرقة فوق ورقة شجرة ملساء. ونتجاذب أطراف حديث سري. (أنا باحبك. باحبك يامامه. وحستيني) لاتنتهي أصداؤه من الطواف في فراغ الغرفة إلا حين تطفو فوق ذاكرتي أصوات أخرى. وفوق جفوني صور أخرى بعيدة. أقولك كلمة مقتضبة وأنحت رسمك كيلا أنسى. وأروح أدير فوق القماش الحار جسداً منهكا لايخلو منك. فوق وسادة صغيرة فجوتان فارغتان. صوت كأطياف ليل يتسلل.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

صباح تال:

صوت ملعقة مجنونة تدور دون توقف في كوب ظننته فارغا. في غضب مقرون بالدهشة أفتح عيني، قدمي تندس بسرعة في خف أسود.أخترق كثافة الوجود والباب لأجدك في غرفتك المجاورة بعينين مرحبتين تدعوني للشراب وتلقي بالملعقة من النافذة. كل ضفادع سلال العالم تتقافز أمام عيني ولا أرى في انحسار الستائر سوى سبباً لتعاستي. (راحت المعلقة) والنوم الذى كان يداعبني والغضب امام ابتسام شفتيك عبث اكيد. على الفراش اتهاوى وأنصت بلا اهتمام لزقزقات عصافير قريبة بينما تقترب مني وتجلس بين ساقي حاملاً الآن كوبك الفارغ، الذي ابتلع رنينه منذ قليل وصار لذلك بلا أهمية. قبل أن تلقية من النافذة أمسك به وأسدل الستائر في وجه الشمس. (ربما!) لكن النوم رحل بلا عودة، والستائر لاتصمد أمام لعبة ثقيلة.

السابعة. صباح الجمعة. (لسنا في الثالث عشر!) وجسدك النحيل يحتاج إلى رحلة صيفية إلى الحمام المقابل. أفتح باباً يفضي إلى صنبور صامت. عندئذ تدرك أن نواياي ليست بهذا السوء. تظل حاملاً لعبتك الصغيرة في انتظار لحظة النشوة القادمة. قدماك في الماء الفاتر ثم ساقاك وجزء من ظهرك. يظل رأسك مرفوعا. (ذهب الليلو طلع الفجرو والعصفور ساوساو). أحمل المنشفة وأنتظر متثائبة أن يكف العصفور عن الساوساو المبكر ذات يوم.

أدسّ ملعقة في فمك الصغير حين تنعكس ألوان قميصك النظيف على وجهك اللامع. تلوك طعامك بلا حماس كبير وتقلب صفحة في كتابك المصور. خطان يصلان بين نظرتك المتسائلة وعيني الناعستين. حركة الملعقة الآلية تضبط الايقاع. صار الحديث بيننا قليلاً وتفتتت في رأسي صور

السلة الصفراء، تتوالى صور كتابك والأسئلة بينما يعلو صوت الطريق. دقات الثامنة. (أسرب مايه عايز أسرب ماايه). أعرف طريقي للصنبور بالصدفة. أترك الماء الساخن ينساب قليلاً ثم أملأ الكوب بالماء البارد. (سُكراً) في فمك العنقودي رغبةتدعوني لأن أقبلك. أهبط في تماسك واضح على وجنتيك وأطبع عليها قبلة متمهلة (العفوا).

أضمك إلى صدري فتحيط عنقي بذراعين لينتين ويلتصق رأسك الرطب بذقني. نسيم صيفي يتسلل عند انفراجة الستائر المسدلة ويهبط على فضاء الغرفة المحيط بنا.

ليل ثان:

حَمَلْتُهُ إلى أبيه. وذهبت لبعض شأني.

أغلقتُ باباً خلفي وتركت الماء ينساب فوق منحنى صدري. صففت شعري وتهادى طرف قميصي القصير عند اختراقي هواء الغرفة. رتبت الوسائد فوق الفراش وانتظرت.

دار المفتاح دورتين وتسللت أصابعي إلى أزرار قميصي. بطيئاً. أغطية فراشنا الناعمة ووسائدنا الملساء تحملني بلا أحمال. أنصت إلى صمت الغرفة المجاورة ثم أترك لجسدي عبث اللحظة المنفردة حين لا يؤوى الفراش غيرنا. بين غمضة عين وأخرى أراه قد تجاوز العشرين بوجهه المستدير وذراعيه الناعمتين. يضم امرأة تشبهني. كسحر الجنيات في القصص القديمة.

أستحضره فيأتي وكأن هدأتنا الأخيرة إشارة مرور خضراء لوجهه الناعس. (مامه!) يأتي فأحمله وأستدير. همزه وصل أخيرة بين جسدينا

العاريين. يمد ساقه بين ساقي فأخشى ارتداء ملابسي حتى لاتفلت اللحظة. رأسه فوق ذراعي العارية وأنفه يلامس وجهي. حين تختلط أنفاسي بانتظام أنفاسه تتلامس عند أطراف الفراش أقدامنا إيذانا ببداية ليل آخر. تنتظم حبات عقدي فوق عنقي ويصير لحركتها الرقيقة الهابطة الصاعدة صوت يشبه صوت النوم. أستدير بعد حين، تاركة جسده الهابط بيننا لاحقة بأطراف الحلم الذي يبدأ.

تلك الروائح

جاء بوجه الضفدع ينقنق.

لم أستمع إلى لغوه الكثير. وذهبت لبعض شأني. حين عدت كان يدخر لي أصواتاً أخرى. تبدو كالهمس. وتشبه الفحيح. لم أعبأ كثيراً ووضعت طعاماً كنت قد أعددته منذ الأمس فوق المائدة التي.

يغطيها بعض التراب. وتبدو وكأنها لاتبالي. استمعت إلى نقنقاتي ورحلت. ثم مالبثت أن عادت. حين رأتني أضع قناع التمساح بدموعه الدائمه مصمصت شفتيها وقالت دون اكثرات كبير، «هذا المساء».

أرفع الأتربة دون مبالاة كبيرة. وأضع الأطباق المكدسة عند أطراف المائدة وأعود إلى المطبخ حيث يتعالى الحساء الساخن في القدر وينذر بفورة أخيرة. لازال هناك يعبث بأصابع قدميه ويمسح أنفه بكفه وتفوح رائحته لتملأ أرجاء الغرفة الضيقة.سوف أستحم اليوم. هذا قراري. رغم ندرة ماء الصنبور سوف أدخر بعضاً منه هذا المساء وأستحم حين يحين الليل. وبعد أن ترحل عني رائحته.

تبقى رغم كل محاولاتي. نافذة.

أطل منها على الطريق ريثما ينتهي إعداد الطعام. حساء ساخن. وبعض أعشاب بحرية لا أتبين طعمها لكثرة الملح والفلفل الأسود والثوم. أشعر بشيء من الفتور في أحبالي الصوتية فأكف عن النقيق طلباً لجلسة سرية بعيداً عن أعين الصغار. أكف عن الرغبة في النظر إلى الطريق الضيق المفضي إلى ساحة الحناطير. وأتشمم خلف الستائر الذابلة رائحة خيول عطنة. أقترب من المائدة. أضع قدمي الحافية فوق البلاط فتسري في أوصالي بعض أحاسيس النشوة. أتطلع برجاء إلى كوب الماء النظيف وأحمد الله على الحساء الساخن. لعل الثوم يأتي بفائدة في المساء. كما سبق أن حدث.

من قبل لم تكن لدي رغبة أيضاً في الاستحمام. كنت أتلقى فوق جسدي رائحته وبقايا حيواناته السائلة البيضاء. أتركها تجف حتى الصباح. وأغط في نوم عميق. كانت أتربة كثيرة تغطيني طيلة النهار. وتمتزج بآثار الليل ورائحة الطعام. كان يتشممني في غبطة الاكتشاف ويفرغ في جوفي شهوة حيوانية بريئة مثل الشهوات الأولى.

التي حلت محلها رغبات أخري في نساء أخريات مجاورات.لا يلدن مثلها كالأرانب. ويحتفظن بزجاجة عطر صغيرة تحت الوسادة. تغطيها الأتربة وبضع شعيرات كثيفة تتلوى فوق فخذيها وساقيها كالثعبان الذكر.

يكف عن صوت الفحيح الأهوج ويستدير مسدلاً طرف جلبابه فوق فخذه العاري ويغط في النوم. أسرع إلى سطل الماء الذي امتلأ الآن عن آخره وأخرج من كوة صغيرة في الحائط قطعة صابون صغيرة. استمتع برائحتها. وأصب الماء فوق رأسي. أغسل شعري وصدري وقدمي جيداً حتى ينفذ الصابون والماء. أرتدي قطعة ملابس واحدة تنسدل حتى الركبة وأطرد الماء خارج الحمام نحو فتحة صغيرة أسفل الجدار يدخل منها الفئران والهواء في المواسم. خطوتان. أصل إلى حافة السرير. خطوة أخرى ألحق بأطراف النوم. لم تزل رائحته هنا. ووجه الضفدع يرتسم على الحائط المواجه للفراش.

أرصفة

أرصفة (١)

كان الميدان مستديراً ككل ميادين. يحتضن في القلب شوارعنا ثم يطلقها على العالم. تتشابك.

في القلب استكانة وفي المدارات نتوه.

سرب من ذوات الأقنعة يتهادى في استسلام مسكين. يخترق وسط الميدان ويلقي بأحماله على أكتاف الرب. يهدينا. ويقينا عذاب الحريق. وينفث فينا من روحه فنصير.

يتنفس العجوز هواء الصبح. تستطيل أعناق النبات في أركان شرفته الأربعة حين يضرب كفاً بكف. يختفي السرب عند انحناءة الشارع فيرسم في الفضاء الندي صليبا. ياكل مسيحي العالم اتحدوا. قد حانت الساعة. وحل الغضب.

سَرَتْ في الهواء رائحة أذيال الفجر حين تمايلت أغصان شجرة الميدان. يستظل تحتها الشرطي حين ينتصف النهار وبائعة الذرة حين يذهب الشرطي والشمس.

يشير العجوز بأصابعه الذابلة فتهرع إليه المرأة في ثوبها الأسود المترب. هكذا. ويدور الكلام عندما يرسم القمر دائرة بيضاء في قلب السماء.

في الصباح تثيره أسراب نساء بلا وجوه. وفي المساء صاحبة الشجرة واللسان السوط. وعند الليل يحلم أن المسيح. قد جاء.

أرصفة (٢)

شتاء يموت. ورجل رفيع بأرجل نعامة يتقافز. في ركن الميدان المستدير هناك تكمن حقيقة الوقت الذي يتسلل. أغصان نحيفة بلا حول. في شجرة نحيفة بلا ظلال. تؤوي ظل الرجل الذي كف عن القفز. واستقر فوق بعضه ينتظر.

سور البيت القديم ينتظر أيضا. تتساقط بعض كلمات من أفواه النسوة في الشرفات فوق طلائه القديم. تعلن إن الشتاء يموت قبل الأوان. وإن رائحة غبار الربيع تشي بفصل نحيف. كسابقيه؟ ككل أيام الجدب التي تلت الرخاء.

تتبعث من إحدى النوافذ هناك أنغام مشروخة. في ثوب حريري فضفاض ووجه كالعصر الوسيط تبدو كأنما تنصت. لكنها مشغولة الفكر الآن. عن كل هؤلاء الذين يعنونها.

في الزمن القديم. يأتي الحبيب ليلقي بوروده البيضاء عند سور البيت القديم. هذا قلبي فاترعي منه أنفاس الهوى. ينتشي السور ويتلاشى في صبح الأيام الخالية.

والثوب فضفاض. والحذاء خفيف. والخطوة هي الخطوة. يتحد ظلان تحت شجرة الميدان النحيفة. ويروحان يتقافزان فوق الأرصفة.

الكلمات تقول إن الشتاء يموت وإن الورود البيضاء في إصيص النافذة هناك قد ذبلت. قبل الأوان.

زمن الأبيض والأسود. وفتيات القصور الشامخات. بين ظل ونور يتهادين. زمن القالس. أو أزمنة الحب الصامت بين ابتسامة خجلى وأخرى

تبوح. والشتاء ككل شتاء. كذبول عيني عجوز النافذة التي تطالعها شمس الصباح، فتدير مقعدها صوب ركن الميدان المستدير هناك. لتترك الوقت هكذا. يتسلل.

أرصفة (٣)

سائح. بلاد الله خلق الله.

في شارع أنيق. يطرق عيون المارة. والسائحات. يبيع ذقنه. وعباءته. ونظرته المسكينة. وبضعة بضائع أخرى مقابل جنيهات بعضها مسروق. وحين يحمل حمله آخر اليوم ليؤوب إلى حارة من داخل حارة حيث خلق الله كجدران البيوت المتراصة. لاتميز عيناه بين جدار ورجل شاخ هنا. منذ سنين. ولايشم أنفه سوى رائحة الفول النابت. كرائحة عرق الرجال حين يحين الليل.

ثم يسوح في شارع آخر أنيق. يلهب آذان المارة الغارقين في روائح عطورهم بصوت منغم كالترتيل. ينفر البعض. ويقترب البعض بعيون متفحصة. لكن أحداً لايشتري.

ذات الملاءة السوداء الملفوفة التي جاءت تطوف. حول كعبة أغنياء الحي المجاور. تجد في هيئته المكرورة جاراً أو صديقاً أو... فتقترب متفحصة. وتشتري بقروش قليلة (بعضها مسروق؟) —وبعد حديث طويل عن عينيها وعن الملاءة الملفوفة على القد—منديلاً أو اثنين. للرأس المكشوف نصفه. عن عمد.

ثم تعود. تحكي لجارتها المكسوفة عن لقاء حدث اليوم. عن طريق ظنته لغيرها. وتمد يدها لمنديل الرأس. تتحسسه. (وكأنه يتحسس نهديها تحت الملاءة). قبل أن يفرغ النهار تكون قد اشترت فرشاة بلاستيكية للشعر. ثم لعبة صغيرة لطفل لايشبه أطفال الحارة. ثم طبقين من الميلامين الملون. ثم تحكي لجارتها. دون أن تتحسس رأسها، أنه الآن يهديها زجاجة عطر صغيرة وهو يربت على مؤخرتها في امتنان.

في بلاد الله خلق الله. يلتقي الاثنان عندما يجن الليل. خلف جدار منسي. في حارة مجاورة لحارات النهار السواحة.

حين يفرغان من الحديث.. تحمل هي حذاءها الجديد المصنوع من القماش. ويطيل هو العبث بأطراف ذقنه. ثم يلف عباءته حول خصره. ويحمل حِمله آخر الليل. هكذا.

أرصفة (٤)

بوجه كالقبح... تصب الماء. تصب بقايا الشاي. تصب نظرتها البليدة علي الطريق. وسيارة بلون المساء تضع فمها في فمها وتنفث دخانا في المؤخرة. برائحة العطن. برائحة سائق العربات الفارهة. (أين ذهب هذا الكوب الذي...) بعين كالمحارات ترمق جانب الرصيف المترب. تصب الماء على الكوب المترب وتخرج من أنفها صوتاً مكتوماً كالغيظ. تدور في حلقات الماء المسكوب أضواء السيارات ولمحات من ضياء الشجرة الخضراء. ذات الأوراق. تلك.

عاد السائق. ألقى نظرته المرتاحة على دخان البراد. وعَنَّ له أن يطلب كوباً. (لكن رباط رأسها الأبيض المتسخ وتلك الندبة عند الذقن). رحل وفي أنفه رائحة الشاي الكشرى وشيء من أسنانها المبتسمة في اللا انتظام السائد.

تصب الماء. تصب بقايا الشاي الساكن في البراد. تصب أفكاراً مضطربة فوق ظلال الأكواب المتراصة. وتصب جسدها في الثوب المترهل. كالوقت.

أرصفة (٥)

أفتح أزرار قميصي. للمارة.

في جولة مسائية وسط حشود الألوان والروائح المتناثرة.

عيون تُطِلُّ خلف عيون تطل على فضاء المعلقات التي تتكدس في المحال. وقميصي لم يعد يستهوي النظر الذي لم يعد يرى سوى الأشياء.

أفتح أزرار قميصي في تجاوب لايلين مع القلب الجماعي الذي. ولكني أفتح أزرار قميصي المغتم في رقة السماء الذي يصطخب رغما عني فوق الوجوه. وأقول لنفسي لابد الوقت آت.

لايدخل صدري سوى بعض هواء منعش لحبيبات القشعريرة. لايدخل صدري سوى بعض تلك الرائحة المتراكمة. من تلك الألوان التي لايعرفها سواي. تضل خطوتي فوق الأرصفة. أسفل الأرصفة. خطوة هنا. وأخرى هناك كنت أنوي أن أخطوها ولكني لم أفعل. لأن صاحب السيارة هناك أشار لصاحبته في ابتسامة موحية أن تهبط إلى نفس ذلك الرصيف هناك وأن تنتظر. كانت التنورة القصيرة تقف حائلاً دوني ودون العبور إلى الجانب الآخر من الطريق.

فتحت أزرار قميصي وتلقيت فوق صدري ساقيها. كانت أطراف الأصابع الساخنة قطيفية الملمس. تدغدغ شعيرات القلق المنتصبة فوق صدري الصاعد الهابط في شوق محموم لساق غير ساقي تضم رغبتي المسائية.

تهادت النهود. والأرداف. والعيون اللامعة فوق الثغور الوردية. في لحظة صيفية نادرة كتلك التي مرت حين كنت أتطلع لأضواء المحال المختلطة

بحركة الأرداف وصوت اللعاب السائل المكتوم. وأحدث نفسي في انعكاس صورتي على الزجاج النظيف أمام الثوب الصامت. أني أكون حين تبتهج شوارع المدينة. فأمنح نفسي للمارة في هدوء. رجال يأتون لمداعبة الصيف بين نهود النساء. ونساء يأتين لتلقي الصيف بين أفخاذهن. تتلقفني تلك الحركة الدائبة جيئة وذهاباً حتى يجن الليل. الليل الحقيقي الذي يأتي بعده الفجر. في هدوء. حين تفرغ مني الطرقات وأفرغ إلي وحدتي. أغلق قميصي على صدري حتى الرقبة. وأبحث في ثنايا الأرصفة عن بقايا ألوان تناثرت حباتها. عن بقايا رائحة ظلت هنا دون الأخريات ويجتاحني شعور قوي بأني رحم في جسد رجل. يولد من ذاته كل مساء صيفي.

... ونوافذ

«الزمن...

خنجر الأبنوس الرشيق

الذي تلهبه النوافذ

عندما ينقلب عائداً في أفقه

ليوقظ دونما صوت

وردة الصباحات.» (*)

خلف نافذة صباحية التمعت شعاعات متفرقة. واكتست عينا الواقف تحت أشجار السور غلالة من ألوان الزهور الجائية عند قدميه وقال لنفسه أشياء لم يبح بها من قبل. (طائر أسطوري يحط فوق غصن مهجور ويبول فوق الرأس المطرق في صمت).

في الضوء القادم من جهة البيت الغربية تتسلل حبيبات الغبار الناعسة وتحط فوق الوجه الخشن. فيصير في تغضنه كوجوه الموتى القدماء. يمضي الزمن كخنجر الأبنوس الرشيق ليوقظ دونما صوت زهر الغسق المنسي.

(*) خالد السنديوني

النافذة

كان القمر مستديراً استدارة ثديها حين فرغ منها الرجل واستدار. تذكرت. بالأمس كانت «أنروميدة» تنام بين ذراعي «پرسيه» مبتسمة. ثم أظلمت الشاشة.

صباح اليوم التالي، صحت من نومها على يديه تعبث هنا وهناك. صنعت لنفسها كوباً من الشاي وجلست إلى النافذة تتأمل أشجاراً خضراء بدت في الأفق. منذ قليل بدأت السيارات تتهافت على الطريق. تقضمه. وكان الرجل قد يئس من عبثه فاستدار.

في نافذة البيت المقابل صنع لنفسه كوباً من الشاي وراح يرشف منه. وكان الهواء يعبث بالستائر. التقى وميض بصريهما لحظة. كادت تسمع صوت كوبه يصطدم بكوبها. ويبتسم في الهواء الفاصل بين البيتين.

أمسك بيدها ليعبرا الطريق، يتحدثان بصوت عال. الكتاب الجديد الذي سيقرآن معا. قالت لنفسها هذا الرجل أحبه وأقرأ معه الكتب.

ترى هل يضمها إلى صدره العاري هذا المساء؟

كانت قد انتهت من كوبها ووضعته على المائدة حين أغلق نافذته فكفت الستائر عن الحركة. ظل خلف الزجاج ينظر إليها. لعله لم يكن ينظر

إليها! ثم تحرك داخل الغرفة. وبعد قليل لم تعد تراه. أفاقت وحملت كوب الشاي الفارغ إلى الحوض. غسلته وتنهدت. لماذا يعلو صوت الشارع هكذا...؟ بعد قليل يصحو الرجل ويطلب منها أن تغلق النافذة وتسدل الستائر. لازال في عينيه بعض نعاس... وهي؟

أغلقت النافذة وأسدلت الستائر. لم تر سوى كتفاً عارية وذراعاً تمتد في الهواء وترتد سريعاً في حركة منتظمة ومتكررة.

تسللت إلى الفراش فالتصق بها وغمغم ببعض الألفاظ التي لم تفهمها. ربتت على كتفه. كان يرتدي سترة من الصوف لم تتبين لونها لكنها تخليت...

ذراعه العارية تلتف حول جسدها وتعتصره.

كانت قاعة العرض مظلمة وكان الفلم يومض في كل لحظة بضوء جديد ثم يخفت الضوء وتستمر الخيالات في حركتها الدءوب. يعلو الصوت ويخفت. يصحو الرجل ويغفو. أندروميدة عارية يلبسونها ثوباً من حرير أبيض. يصحو. برسيه يقتل الذئب ذا الرسين. يغفو. ما بين إغفاءة وأخرى ينظر إليها ويبتسم. يعجبك الفلم؟ تهز رأسها فيطمئن. يميل فيلتقط أنفها رائحة أنفاسه. ما بين حلم النشوة وبين ثديها المستدير همس لاينتهي.

قالت لنفسها هذا الرجل أحبه وأذهب معه إلى قاعات العرض المظلمة. ترى هل أعجبه جسد أندروميدة العاري؟

كادت توقظه من نومه وتطرح عليه سؤالها. لكنها زادت التصاقاً به وتركت لجسده حرية الإجابة، فاستدار. كادت تعبث بيدها في صدره لكنها ترددت. ثم كفت عن التفكير.

قالت لنفسها هذا الرجل أحبه ولا أملك منه سوى بضع لحظات تصنعها رجفته المحمومة.

وقفت خلف ستائر نافذتها تحدق في النافذة المقابلة. وقت طويل مضى. لم تشعر إلا ويده فوق صدرها فجفلت. منذ أيام لم يصنع لنفسه كوباً من الشاي ولم يرشف منه وهو ينظر إليها. كانت يديه قد هبطت الآن إلى أسفل. وظلت نافذته مغلقة فلم تعد ترى كتفه العارية. التصق رأسه بصدرها وهبطت يديه إلى ساقيها. حركة طفيفة خلف الستار وبدا لوهلة كأنه هناك. يرشف من رحيقها قطرات من العرق. يرفع كوبه كأنما يحييها. ويرسل أنفاسه ساخنة في الهواء فتشعر بالدفء أعلى ساقيها وفي منطقة الهواء الفاصل بين البيتين.

قالت لنفسها هذا الرجل أحبه وأمنحه نفسي في كل ساعات النهار. وحين يستدير القمر.

كان القمر مستديراً استدارة ثديها حين فرغ منها الرجل واستدار.

تذكرت. بالأمس كانت تغلق نافذتها حين ناداها صوته للمرة لأولى. لِمَ تجرعين الكأس كل صباح عند نافذتك وتحلمين بالأشجار الخضراء البعيدة عند الأفق ؟

ثم مد ذراعه العارية باسطاً يده في الهواء. هل ضمت ذراعه جسداً أو ضمت يده صدراً كصدر أندروميدة ؟ هل كان اسمه پرسيه ذات يوم بعيد، قبل أن يأتي ليقطن نافذته ؟ مدت يدها في الهواء الفاصل بين البيتين وبكت. غداً يفرغ منها رجلها ويوليها ظهره. هل يسمع ؟ نعم. وغداً تشتاق إلى رجلها وتهتز يدها عند ذكره ولاتقوى. وغداً يمضي يوم آخر تفتح النافذة وتغلقها وتنصت لصوت الطريق. هل يمد الآن يديه وينصت ؟ نعم. وغداً تحلم حلم الليل الذي لا يأتي وتنتظر موعد القمر الجديد حين يستدير. نعم. لذلك تصنع لنفسها كأساً ونافذة وستائر وتختبيء خلف الأشياء في الفراغ الفاصل بين الحلمين. والأشجار الخضراء دائمة الخضرة دائمة الابتعاد. والأفق خطوط... هل ؟ نعم. نعم.

❖

نافذة من طراز الاحتلال

كان الجد العجوز جالساً أمام النافذة. يحملق في المارة ولا يسمع شيئاً من أصوات الدنيا. نافذة ذات أعمدة حديدية من طراز الاحتلال. كان قد استقر في مكانه منذ دخولهما ولم يلتفت إليهما. كذلك استقرت النافذة.

تحركا داخل المكان دون أن يصدر عنهما صوت. لم يكن ليسمعهما. ظل المارة يمرون في الشارع وصوت لغطهم لايصل إلى رأسه إلا ليرتد صمتا.

في الحجرة الفقيرة فراش ومكتب صغير ومائدة ومقعد وبعض الأشياء المتناثرة. هنا وهناك. النافذة الوحيدة تطل على جدار متآكل. رائحة الأوراق القديمة تفوح من المكان. بعد قليل تفوح روائح أخرى. بعض هذه الأوراق عليه طلاسم موسيقية. لم تفهم. لكنها فرحت حين رأت الآلة الرشيقة ذات الأوتار.

«لا. الآن أحبك. وغداً أعزف لك لحنا».

ترى هل سمع الجد؟ هل أحس بحركة غريبة في الحجرة.؟ كان الآن غافياً في جلسته التي لم تتغير. وكانت نافذته الآن تحكي.

تسللت حتى بلغت الباب الخارجي. أطفأ نور الحجرة. وخرجا معاً إلى الطريق. هل كان الوقت ظهراً أم عصرا؟

تفوح رائحة الكنائس من كل حارات الفجالة. وتمتليء نوافذها بالناس. الوقت نهار أو ليل أو بين هذين. الوقت بلا صنعة. ارتفع حائط من الطوب الأحمر بجوارها. ملمسه رطب. وجسدها. أحست بالزهو الآن لأنه لم ينلها. أو هكذا ظنت. وكان السور ممتداً لاتعرف إلى أين.

❖

قالت أمها منذ زمن «لاتعط جسدك لغير زوجك» قالت «سوف تصرخين ألماً. وتبكين. وتنتفضين.وسوف يطمئن إليك زوجك عندئذ. وإلى نفسه».

تذكرت ولم يكن السور القديم قد انتهى بعد. فرحت لأنها احتالت على الجميع. حين دفعته في الوقت المناسب بكت. ترى كيف يكون يوم الزفاف؟ هذا الألم؟ كانت قد نسيت.

❖

أمسك بيدها وعبرا الطريق إلى الميدان. جسدها كالهواء يصطدم بالأشياء ولاتشعر به. فوق الفراش غطاء أزرق اللون. باهت ونظيف.

كانا قد وصلا إلى طرف الميدان المقابل لشارع الفجالة حين سألها متى يلتقيان ثانية. قالت غدا كعادتها. في بيت الجد العجوز؟ قالت لا.

على الفراش غطاء به مربعات زرقاء باهتة. بعضها لونه داكن.

في بيت الجد العجوز؟ قالت لا. وخيم عليهما الصمت. توقفا عند محطة الترام وراحت تملأ صدرها بالهواء لينتفخ ثم تعود فتخرجه في حركة طفلة. لكنه لايبتسم. هكذا الفنانون! أو هكذا ظنتهم.

على الفراش غطاء به مربعات أخرى بيضاء زال لونها. وبضع قطرات وردية اللون تجمعت في منتصفه.

في البيت؟ قالت «هذه المرة استطعت... فمن يدري بعد ذلك؟» لم يفهم. «هذه فتاة بلهاء. سئمت التاسعة عشرة».

عندما جاء الترام ليحملها إلى بيتها كان الجد العجوز قد تململ في جلسته واستدار قليلاً ناحية الشمس.

نافذة شتوية

تراكمت فوق رأسي أعمال اليوم والغد. حتى كدت أفتح نافذتي وأترك شتاءنا القارص هذا يقتلني كمداً. فكرت في حلول أخرى أقل جذرية وذهبت صوب المطبخ لا ألوي على شيء.

كانت الاطباق المتراصة الآن قطعاً متناثرة وشظايا. تبدو من بينها بقايا طعام الأمس وصباح اليوم. فوق بلاط لامع.

رحل الجميع وتركوا لي مثل كل صباحات الشتاء هموم البيت المنسية. لماذا تراني اليوم أرغب في التسلل إلى أحد الأسرة، لأقحم نفسي في قصة حب حمقاء كتلك التي يطالعها الولد الأكبر؟ ولماذا تراني اليوم أرغب في حديث تليفوني طويل مع صديقة بلهاء كتلك التي يدعوها زوجي بين الحين والحين على العشاء؟ لم أطيل النظر في المرآة؟ وأتباطأ عند النوافذ؟ وأمرّ بيدي فوق ظهر المقاعد وأطراف الصور المعلقة؟ لم يبتسم خاطري حين تلوح في الأركان كرات الغبار الرمادية وتتكاسل فوق المائدة أطباق الإفطار؟ لماذا أكتب على غبار مائدة منسية اسم زوجي؟ وأغلق الباب على فراشنا الكبير؟

❖

أخرج الآن من المطبخ. أعبر الباب إلى السلم المعدني الدوار إلى باب البيت الخلفي. إلى جانب من الرصيف الضيق. إلى شارع جانبي. يفضي إلى طريق به حركة سيارات لاتكف عن الدوران. أعرف الآن أني سوف أتجه صوب النهر الكائن هناك وأني سوف أعد الأشجار التي تفصل بينه وبين باب المنزل الخلفي وأني سوف أجدها أقل عدداً أو أكثر عدداً مما تخيلت. وأني

سوف لا أبالي بعددها الذي يتبدل صبح مساء. بين شتاء وشتاء. أعرف الآن أني سوف أجد النهر في مكانه كما تركته منذ زمن. وأن أحد أصحاب المراكب سوف يدعوني إلى نزهة ما. أعرف أني سوف أبتسم وأعطيه يدي اليسرى ليهبط بي إلى قاع «الفلوكة» البيضاء. وأننا سوف نبحر. أعرف أني سوف أغفو في هواء النهر الساري وأتذكر أشياء نسيتها من قبل. وأني سوف أفيق عند شاطيء مهجور لاتمر به المراكب. ولا تتباطأ عنده سيارات الرجال. وأني سوف أذهب إلى جوف الأشجار الملتفة بينما يرمقني حارس المركب المسكين. أعرف أني سوف أسلمه نفسي. لو أراد. وأني كنت سأنتشي في ظل الأشجار الشتوية. لو أردت. وأعرف أني سوف أحجم عن الإرادة. وأني سوف أعود إلى بقايا الأطباق المتكسرة. ألملم بقايا الطعام المتناثر وأفرح لان لمعة البلاط لم تزل.

❖

أعيد حكايات الولد الأكبر المتناثرة فوق فراشه إلى المكتبة. أضع سماعة التليفون دون حديث. أرتب فراشنا الكبير. وأزيل الغبار بشيء من القسوة عن المقاعده والموائد الصغيرة. أفكر في دعوة صديقتنا ذات ليلة. وأعرف أني نسيت النهر والأشجار والفلوكة البيضاء وصاحبها المسكين. وأني أتذكر الآن جدول أعمالي القادمة. بعض حبات عرق تتساقط فوق جبيني. في يأس شتوي. أخطو بضع خطوات بعد الأربعين. وأعقد أملاً علي تلك السنين التي تمضي بلا داع. فأخبر نفسي كل صباح وقبل النوم. أني قريباً. أصبح.

❖

نافذة أخرى صيفية

عندما يكون الهواء بهذا اللون –الصيف– وتقترب الساعات من نهاياتها. أطل من النافذة على شيء مايحدث. وأحس. أني أفقد شيئاً لم أعشه الآن هكذا. كما يجب أن أعيش الزمن الآخر. خارجي. تمر أصابعي متمهلة بين خصلات شعري. على عنقي. على صدري. وعند ساقي تتوقف. وتتوازى ذراعي مع جسدي في حمى السأم. كما تتوازى خطوط الطريق الجالسة خلف النافذة.

عندما تكون رائحة الهواء مترية. مشبعة بالصوت. تأتي من بعيد. تقبع عند عتبات جسدي وتصبح رائحتي رائحة الأشياء التي لم تحدث لي. هنا وهناك. أحرك أصابع قدمي. أحرك لساني داخل حلقي الجاف. أحرك جسدي في اتجاه حافة النافذة. يمر نصفي من الفتحة الضيقة ويصمد نصفي الآخر أمام الغواية.

تمتد يدي إلى كوب الماء. تتساقط بضع قطرات هاربة. تتبخر قبلما تمتد إليها ألسنة الأرض. وأتركها تتساقط بين شفتي وحافة الكوب الملساء وأشعر بلذة أن يرحل مني شيء ما. أصب الماء على لساني. علي ذقني. على صدري المفتوح. على حافة النافذة. على الهواء. على الطريق الممتد هنا. تحت أهدابي المسدلة.

وحين أغمض عيني تصير الكرة الزجاجية قلباً أضعه فوق صدري... وأنصت...

نافذة بلون المانجو الأخضر

شجرة مانجو وحيدة تتوسط فناء صغيراً وتطل أوراقها على النافذة البحرية. في بيت جاء هنا منذ سنين (وكانت أشجار المانجو لاتزال) وجاء ناسه بلا يشمك ولاطربوش.

فكرت أن المانجو يظل هكذا بلونه الأخضر حتى يسقطه الصبية. الذين دأبوا على ترقبه كل حين. ومذاقه اللاذع هذا يلهيهم عن عينين متربصتين خلف النافذة البحرية ويد قوية تمسك بالعصا.

حين تطل العجوز. يقهقه الجميع. يتقافزون ويتلذذون بالمذاق اللاذع كما تتلذذ هي بلعبة كل خريف. (كم خريفاً يمضي هكذا منذ...) وينتظرون عند الباب الخلفي ريثما تهبط إليهم. ثم يتهامسون ويركضون. حين تلوح العصا خلف عيدان الأشجار الجافة. تتباعد صيحاتهم.

وفكرت أن العجوز التي تصيح الآن بصوت حاد متقطع لن تلبث أن تئوب إلى السلم الخشبي. عند الحائط هناك. تجلس على الدرجة الأولى تحرك بعصاها حبات الرمال المختلطة بأتربة قديمة. ترفع عينيها تارة إلى حافة الأوراق المتدلية عند النافذة وتخفضها تارة إلى جذوع الشجرة الضاربة في باطن تلك الأرض. التي كانت بلون الطمي. الراحلة مثل الآخرين.

(كالراحلات صوب بيوت لم أعرفها. لأنى كنت بعد تلك الصغيرة. التي لاتعي).

ولم تزل هكذا حتي المغيب. تتكيء على عصاها كي تقطع الوقت وتمضي درجة درجة. مخلفة وراءها بعضاً من غبار السلم. ومن رسم قديم على الأرض التي صارت. بلون الرماد.

نافذة بحرية مغلقة في شتا ء يشي بآلام قادمة. وشجرة مانجو وحيدة لايعجبها نداء الريح.

ونوافذ أخرى مغلقة. في تراكم البيوت الساكنة، حول فناء قديم..

استقالة

أستلقي فوق صخرة عالية. عارية. طيور سابحات في الفضاء البعيد. يأتين إليّ. هذا جسدي فكلوه. شمس الصيف الحارقة ونسيم البحر الذابل. يعتريني. هذا دمي المنسلخ من ثنايا شعيراتي الدفينة. هذا شعري المتكاسل فوق نتوءات الصخر. هذه أنا التي تتحرق شوقاً للانسياب وسط تعاريج الصخر. وسط حنايا الريح. وسط انعطافات الموج الهادر عن كثب. هذه أنا التي نصف جسد، نصف كون، نصف وعي بالوجود.

❖

كان هذا حلم يقظة. حين أطفأت نور الغرفة رحل اللون. وظل شكل الأشياء في المكان كحقيقة سوداء تعلن عن كثافة الوجود. مددت يدي في حنق مقرون باللهفة تحت الوسادة. وأمسكت برباط الرأس. أحكمته فوق شعري المتناثر هنا وهناك وتركت رأسي يهوي فوق الوسادة من جديد. حدثت نفسي بصوت خفيض كي تذهب أفكاري الممسوسة. وأنصت إلى حفيف أوراق الشجر القادم من النافذة البحرية. صور متقطعة من بحر هادر وسماء صافية تحوم فيها طيور شرسة وصخور تشبه انكسارات الجبال في الأزمنة الأولى. أغمضت عيني على صورتي العارية فوق الصخرة. وتمنيت أن أحلم حلماً مبهجا. أسدلت طرف ثوبي الليلي حتى قارب أطرافي واعتدلت فوق ظهري كالصليب.

❖

الثالثة بعد منتصف الليل تقريبا. لم أنظر في الوقت. لكن رائحة الكون تنبيء باقتراب الفجر. لازالت صورتي العارية معلقة هناك. في الفضاء الفاصل بين الفراش والسقف. ثقلت جفوني ثانية فغفوت. وأفقت على زقزقة عصفور قريب. كانت غرفتنا تسبح في ضوء رمادي يشبه ضوء الفجر. اكتست الأشياء لوناً موحداً كصور الأفلام القديمة. أسدلت الستائر وانتبهت إلى وجودك عند طرف الفراش الآخر. أين كنت أثناء الحلم؟

❖

رشفة واحدة من كوب الشاي الساخن تغسل حلقي من ملح البحر. تعقبها رشفة أخرى وقضمة من كعك يشبه صخور الليل. أزدرد بسرعة كل ما يتراكم في تجويف الفم. وأعلن أني انتهيت. ترمقني بنظرة متثائبة. وتدعوني في غير حماس للتريث. أغلق الباب خلفي على كلمة مقتضبة. نصفها يظل داخل البيت ونصفها الآخر يرحل معي. دقيقة واحدة عند أعتاب البيت ثم انطلاقة تبدو في غير محلها نحو الرصيف المقابل حيث تقبع بقايا صخور انكسارية وبحر صغير يعكس زرقة السماء وريشة طائر أسطوري هارب لتوه من التاريخ. أجفل دون أن أتوقف عن السير. تحلق فوق رأسي صورتي في شبق مكتوم. عارية إلا من شعيرات تتراكم هنا وهناك في إصرار. قبل أن أنزلق داخل سيارة الأجرة ألمح طرفاً من شمس الصيف الحارقة، وأصافح هواء الصبح الذابل.

في المرآة الأمامية، عينا السائق كعيني صقر.

❖

في الممرات المتثائبة يمر الآخرون في حركة متمهلة. يتشممون عطري الذي رحل. ويكشفون عن أسنان ملونة كالابتسام. أو كالوعد. أضع يدي فوق مقبض الباب الممدود وأخطو خطوتين. بالداخل. أوراق قديمة متراصة هنا وهناك، يعلوها التراب ولون الصدأ. أفتح درجاً يقفز منه فأر رمادي. يتواري خلف أكوام من الورق الجاف. أضع حقيبتي مكان الفأر وأغلق الدرج في حرص. أدير نظري في الغرفة المستطيلة مروراً بالنافذة والباب المفتوح. أتشمم رائحة ملابسي التي لازالت تشي بعطر الأمس. أتحسس رأسي حين تباغتني فكرة أني نسيت رباط الرأس. وأخرج من جيبي منديلاً أجفف به وجهي في انتظار أن يمر تيار الهواء بين النافذة والباب فيحملني بلا صوت.

❖

فوق مائدة الاجتماعات المستطيلة أوراق هامة ملونة. جدران الغرفة الخشبية قد حال لونها. والمكتب الكبير الذي يتصدر الحائط الأمامي يلمع في ضوء الشمس القادم من النافذة المغلقة. الهواء القادم من العلبة المعدنية يشبه هواء العلب المحفوظة. بلا صوت. بلا رائحة. أسبح في الفراغ الفاصل بين الباب وبين المكتب مرورا بالمائدة المستطيلة. أخترق عقبات أخرى صغيرة وأتخطى إحساسى بالسأم. أضع فوق المكتب ورقة وحيدة ذابلة ولا أنظر إلى الرجل القصير الذي يحتمي بمقعدة العالي. نتبادل كلمات قليلة قبل أن يضع إمضاءه أسفل إمضائي. ألتفت إلى الهواء المحلق فوق رأسي فلا أجد أثراً لصورتي العارية.

❖

٩

كان هذا حلم يقظة. حين مددت يدي في حنق مقرون باللهفة تحت الوسادة أمسكت بذيل فأر رمادي. وضعته في خفي الأسود فاستكان. وأنصت إلى حفيف أوراق الشجر القادم من النافذة. رائحة الكون تنبيء باقتراب الفجر.

شبيكة

«كل السعادة والنعيم في القرب منك

من يوم ماشفتك عمري يوم ماغبت عنك

حتى في أيام الجفا كنت باحبك

وأفضل أحبك... طول الحياة...»

في أيام الجفاف هذه، تذهب إلى حلقة السمك الواقعة عند الميناء، فلا تجد سوى رؤوس الأسماك المقطوعة، تحملق فيك بعيون زجاجية وأفواه فاغرة. على الدهشة. البحر يمتد أمامك. والصيد ثمين. لكن الملح يغطي حبيبات الحلق الخشنة. فلا تلعق سوى الجفاف. تجلس على صندوق خشبي قديم. وتعطي ظهرك المقوس للبحر. في انحناءة العتاب. (هكذا يابحر هكذا). يأتيك الليل وتنير ظهرك أنوار السفن الراسية. على ماء أخضر. فلا تستقيم انحناءته ولا يستقيم الزمن. الأسود كالليل تقول.

مدى الحياة تحب الموج الهادر. والموج الساكن. والموج الذي يأتي من بعيد في انسياب. تقترب بكفك الصغيرة فوق رؤوسه البيضاء المزبدة. وتلعق كفك. فتصير شفتاك بلون رؤوس الموج. تضرب بقدمك أصداغاً منهوكة تلقي بها إلى البحر فيعيدها إليك أكثر إنهاكاً، ولاتدري. أنك كالأصداف. هنا. مكسور الأطراف والقلب. تضرب برأسك في قمة هدير البحر لتعود إلى أمك برأس تملؤه كسور الأصداف والأمواج والرهبة.

٩

هكذا كنت صغيراً ياشبيكة. تشتبك مع رمل الأرض وموج البحر وتعارك ذباب وجهك. الآن هكذا. تجلس مديراً ظهرك للمملكة. (كانت كذلك منذ زمن مضى. أعرفها وتعرف أني قناصها). الآن حل الجفاف على البحر الهادر تقول؟ بل رأسك لم يعد يناطح الموج. وجسدك الخشن صارت تجاعيده تشرب الملح في جوفها. أما البحر فلا يجف. وحلقة السمك هذه. التي عرفتك صغيراً. لم تعد تذكر سوى الحروف الأولى من اسمك القديم. (حتى في أيام الجفا كنت أحبها) واسمها هي التي بدت لك ذات فجر كجنيات البحر. (حسنية؟) أما بقية الأسماء فتأتي وتروح. لاتبقى سوى الأساطير. التي ينسجها الصيادون حولها. في حلقات الليل عند الشاطيء. ويتذكرونها علي المقاهي حين يدب «نعل حريمي» في الحي. (ليس مثل حسنية؟).

قم ياشبيكة. ولاتجعل قلبي الموجوع يردد عليك حكايات كل يوم. لماذا تمر على حلقة السمك كل صباح. تعجبك رؤوس الأسماك المقطوعة؟ أم يعجبك الندم؟ قم ولاتترك ظهرك في مهب ريح الميناء. ولاتترك أفكارك تبعثرها الريح على وجوه المارة. (يعرفونني ويعرفونها. أما الآن وقد أوت إلى بحر آخر...) كنت يافعاً. ولم يكن رأسك يملؤه العناد. حاربت هنا وهناك ولم يغير ذلك من الأمر شيئا. سافرت هنا وهناك وحلت كلمتك على رؤوس العباد. عرفت جنيات البحور السبعة وأنجبت في كل بحر ذرية. (لكن حسنية...) والآن تفرق أبناؤك في البحار كلها وصرت وحيدا. ألا تقوم معي إذن ياشبيكة. لتدرأ عن جسدك أنواء البحر؟

جئتك بطعام طيب. خذ. كانت يدك التي صارت نحيلة تجذب الشباك فوق القارب مترعة. فيهلل الجميع. للخير. الآن لاتريد أن تمدها إلى نذر يسير مما أعطانا البحر؟ (لايعطي البحر جنيات مثل حسنية) هذه أعطانيها الرجل الكبير. وقال هذه لايأكلها غير شبيكة. في ذكرى أيام الجود. والنوات التي تذهب بالرجال. ميناء كهذا منذ سنين كنت تقطعه في دقائق. الآن؟ رجاله أكثر من سفنه. والقارب الصغير تأكله سفينة كبيرة. أما أنت؟ فتدير ظهرك كل صباح للبحر وتواجه برأس أشعث، موج الميناء. تعجبني والله ياشبيكة. وتعجبني أساطيرك الكثيرة. ولكنك لا تأكل يارجل. (الرجال يأكلون الأسماك الصغيرة. ويبيعون الكبيرة لتجار السوق.) والسوق بلا رحمة.

❖

قيل لي إن حسنية صارت عجوزاً شمطاء. حتى جنيات البحر يصيبهن العجز. فهل رأيتها يا شبيكة؟ يقال إنها رحلت إلى بحر غير بحرنا وإنك منذ ذلك الحين. ولكني أعرف أن حسنية لايمكن أن تشيخ. فهي هنا في رأسك. الذي يجتر القصص القديمة ولاينسى. وإلا ففيم جلوسك عند البحر كل صباح؟ (لن تأتي حسنية إلا من بين ضلوعي. أما الانتظار...) قد صار إذن عادتك التي تلازمك؛ كاسمك. قيل لي إن حسنية قد تبتاع بيتاً في أول الشارع الذي يصب عند الميناء. وقيل أيضاً إن أساورها الذهبية تغطي ذراعها المترهلة. (كالجنيات اللاتي يأتين من الممالك البعيدة.) فهل رأيتها ياشبيكة؟

❖

رأيتها. والله رأيتها. هل تصدق أني اليوم أعرفها. وكنت أسمع عنها بالأمس فقط. كتب عليك ياشبيكة ألا تطيل جلستك عند الميناء. وأن تفرغ مافي جوفك من هموم عند أعتابها. أعرف أنك لن تأتي إلى هنا في صباح الغد. فقد رأيتها كما أراك الآن. عجوز نعم. ولكن في عينيها عمق البحار التي طافت بها. وفي شعرها المكسو بالحناء أمواج كثيرة. وفي دبيب قدميها سحر أساطير الجنيات. والساحرات العجائز الطيبات. وفي رنين صوتها المنكسر. ولكني لن أصف لك. قم ياشبيكة. وتعال معي إلى قمة الشارع. سترى البيت. وترى حسنية. قم معي. والله رأيتها. ولن أنصت بعد الآن إلى أحاديث الشاي الليلية. تكفيني منكما نظرة. قم يارجل ولا تخف. سوف أصحبك إليها. وأقص عليها حكايتك مع الميناء. وسوف تحنو هي عليك وتقسو على نفسها. وتدمع عيناها ندما. كما تدمع عيناي الآن. لقد خرجت حسنية من رأسك وجاءت تسكن قمة الشارع المفضي إلى الميناء. ألا تقوم معي؟

❖

حملك البحر وهناً على وهن. ولافصال اليوم. كما أردت. إليه تعود. الملح يغطي أكفانك البيضاء. وانحناءة ظهرك تستقيم قبل السقوط. ترى من مِن جنيات البحر تحتضن رأسك الآن ياشبيكة؟

❖❖❖

بضعة آلاف آخرى
كالجنيهات أو كالموتى

اشترينا مقبرة. لابد أننا الآن سوف نملؤها أكفانا بأحجام مختلفة. شاهدان يواجهان السور القصير ،والقبلة. تعلو السور بعض قطع زجاج مسكور مخضوضر. لإخافة القطط الليلية والأشباح متهدلة الأثواب وساكني القبور الذين. لن يلبثوا أن يفترشوا الأرض الباقية ويقيموا ببقايا أسمالهم القديمة واقياً ضد الريح وشمس الصبح ذات العافية.

مقبرة تطل على الطريق العام. حيث تمر سيارات بأحجام مختلفة. قلت: حين أنصت إلى دبيب الأقدام مختلطاً بدوران العجل وأصوات الموتورات المتباينة أكون في دورتي اليومية أتابع تحلل جسدي وألاحظ عظامي الصلبة تجاور عظام سيدة أخرى هي بالأحرى (أمي؟) قد كفت عن ارتياد المقابر ظهراً. وصارت تسأم.

عاهدتني وأنا بعد صبية أن تسمح لي أياما بعد الفناء بالتجوال بين مقابرنا وبيوتنا وشوارع حينا القديم. (متى يتحلل الجسد ويغلبه العفن؟ أطالع في مرآة مكسورة نتفاً من وجهي ذي الملامح الغائرة وأنتظر إحساساً مجهولاً يقتنص روحي عما قريب علّي أصير) كفناً حريرياً وهواء يخترق الهواء، أتسلل إلي غرفة الدفن المجاورة. أتحسس جدرانها اللينة وأتوسد عظمة فخدك في امتنان.

قبل ذلك، إدارة الجبانات.

وجوه عفرة. ورائحة شاي أسود وبعض أكواب فارغة إلا من بقايا الشاي المبتلة في القعر. نظارة غليظة سوداء تنبئني بأن صاحبها عما قريب

يفقد النظر. تدقق في الأوراق. ويزوم الفم. أدس بينها ورقة صغيرة تحمل علامات البنك وأرقاماً كثيرة. بينما يتصدر وجهها مسجد الرفاعي. تنفك عقدة الشفتين. ورقة بعشرة جنيهات جديدة. ومقبرة جديدة على طريق عام. بعيداً عن مدينة الأحياء. ناصية بحري. وقريبة من مشروع الجامع الذي سوف يستقبل الأكفان قبل الأرض. عما قريب يتم تسجيل الأرض. والاستلام في الجبانة.

هناك، الشركة تتولى البناء. شاهدان وحجرتان وسور قصير (وبضعة آلاف أخرى؟) أربعون متراً أو يزيد حسب التساهيل. والدنيا الفانية هذه لاتستحق. البقاء في دار البقاء وإلى الأرض جميعا عائدون. طفا صوت غريب بين رنين ملعقة في كوب شاي ممتلىء وحفيف أوراق متربة وأزيز مقعد المدير وحذاء المدير وأرض غرفة المدير الخشبية. التي يتقاسمها مع مكاتب أخرى لأحياء آخرين جاءوا هنا صدفة منذ سنين. وظلوا. صوت يقول: «كل سكان المقابر يسرقون أكفان الموتى. هم يسرقون أكفان الذكور والنساء ويمتنعون عن سرقة أكفان الأطفال، فهم يظنون أن من يسرق كفن الطفل لايفارق القبر الضيق المظلم حتى يأتيه الموت بعد عذاب الجوع والعطش».(*)

قلت: «سوف أبني مقبرة باتساع الأمتار الأربعين ولن أترك موضعاً لقدم. إن كانت من الأحياء».

❖

(*) يحيى الطاهر عبد الله

في العيد تمتلىء الجبانة الجديدة بنساء شامخات يرتدين أقنعة سوداء من التل أو الدانتيل. يتقدمن ببطء شديد. تقودهن السبل كل سرب إلى باب مقبرته. تفتح الأبواب جميعاً في حركة واحدة. دون اتفاق مسبق. يتقدمن وتتخطى كل منهن باباً صغيراً لتنتحب قليلاً وتوزع ورقات نقدية صغيرة جديدة على صبية تجمعوا من الصحراء القريبة للاحتفال بالموتى. والحارس يبتسم في امتنان ويشكر الله علي نعمة العيد الذي يأتي (بأية حال يأتي العيد؟).

أكون أنا في زيارة لأمي. أملأ جيوبي بالأوراق النقدية الجديدة وأسكب دمعتين مع كل ورقة تذهب إلى يد طفل متسخة. وأكون أنا في ثوب أسود ضيق مفتوح الصدر قصير أدير ظهري لحارس المقبرة الذي يفتح فاه كالبلهاء. وأنظر إلى باب غرفة الدفن الموصد. منذ متى؟ قريباً تصيبني غيبوبة رابعة. أرحل بعدها وإلى هنا أنزلق في يسر يتحدث عنه المعزون. كانت تسرع للقاء الأحباب يقولون. ويذرفون دموعاً أخرى قرباناً لملك الموت. الذي يحلق فوق رؤوس العباد. ويدنو أبدا.

عند استلام الأرض كانت مستوية. جاء المهندس وصار يحيطها بالطوب الأحمر. وجاء المهندس وصار يضرب فيها بفأس ميكانيكية. وصار يسوي جدراناً تحت الأرض. وصار يبني شواهد القبور. وصار يخط على باب السور اسم العائلة. ويعطي الباب رقماً. ويسجل الرقم في الأوراق. ويدس الأوراق في حقيبته. ويتناول ماتبقى له من نقود. وفوق المظروف يكتب اسم العائلة. مرة أخرى يعطيها رقماً. ويوزع البقشيش على العمال. وينتاب الجميع فرح

خفي. انتهت الحفرة. الآن يعودون إلى خمارتهم عند حلول المساء. ويجرعون كئوساً أخرى في صحة الموتى القادمين.

عند استلام المقبرة فكرت إننا الآن سوف نملؤها أكفاناً بأحجام مختلفة. وانتابني هاجس أخير. ماذا لو؟ أأكون أنا المبتدأ؟ اطمأنت نفسي قليلاً حين هبت ريح الظهيرة وصهلت الشمس في عليائها ولسعتني. لازلت أحيا الآن هنا والخوف يضاجع النفوس في المساء. حلت في نفسي صورة الهرم الأكبر فعدت شامخة إلى سيارتي الرابضة عند حافة الطريق العام. بضعة آلاف أخرى لبناء هرم صغير ذي شاهدين وغرفتي دفن وسور صغير تعلوه شظايا زجاج مخضوضر. (لابأس إن اتخذ شكل المصطبة) فالروح تسكن الهواء لاشك. والخوف. الخوف يضاجع نفسي عندما يحل المساء.

يحدث في الماضي
أن نرغب في شيء
من المشاركة

قد قدر لي يوماً أن أجلس إلي نفس المائدة مع نون (اعتدل في جلسته وانسابت يده فوق رباط عنقه الحريري). وأحسست عندئذ أني مثل شخوص حكايات القرن الماضي. أجاور الأحداث حين حدوثها. فأشعر برغبة في المشاركة. (ابتسامة هادئة على شفتيه المكتنزتين. وهزة رأس خفيفة) وقد كان. رحت أنصت إلى حديثها المقتضب مع جارتها التي تلوك الطعام في كبرياء. وأحاول ألا أنظر اليهما منعاً لإثارة الشكوك. قالت نون على استحياء (نظرة مستقرة على وجهي يقبع تحتها أنف معقوف) إنها تريد التخلص منه. بين رشفة كوب وأخرى تنهدت الجارة وانساب صوت نون ناعماً وهي ترمق جارتها بتوجس. طفل صغير يأتي الآن يفسد ما خططت له منذ سنين (عندئذ وضع ساقاً فوق ساق واستقرت يده فوق ذراع المقعد الخشبي) فهل تعطيها عنوان الطبيب؟ نعم. قالت الجارة.

هل قرأت يوماً موباسان؟ (تقطيب ما بين الحاجبين في استخفاف ويد توضع فوق كتاب ضخم) لم ألمح فوق غلافه سوى كلمة «سيجموند». فقد شاءت الأقدار أن ألتقي ثانية بنون في عيادة الدكتور أبو المجد. تعرفه؟ ثم إن نون فتاة شعرها أصفر. وعيناها بهما حزن دفين. وشفتاها خبيثتان كلسانها. الوصف هنا شر لابد منه (إيماءة صغيرة ودخان سيجارة يرسم أشباحاً في الفضاء) بادلتني تحية حين امتقع وجهها الشمعي. ثم اطمأنت حين حدثت نفسها بما أظن أني أعرفه... ثوبها الفضفاض يخفف عنها الحر وعيون التطفل... لكن حديثها الفضفاض يشي برأس جميل أجوف.

وقلت لنفسي إن أبو المجد لايفعل ذلك. (رفع ذقنه قليلاً وتحسس بيده

رباط عنقه عند انعقاده) وربما يفعل.

❖

عيادة أبو المجد الصغيرة مثل هذه تقريبا. لكن أنوارها أسطع وأثاثها أكثر حيادا. تعرف ما أقصده؟ (نظرة يشوبها التوتر تنسحب على فراش صغير يشبه الأريكة. تعلوه صورة زهور برية. باهته) ويبدو أنه رجل بخيل. حجرة الاستقبال تمتلىء بطونا منتفخة. تعلم! كل عشرين ثانية... ومع ذلك. (الشفتان المكتنزتان الآن دائرة لحم مضمومة في استنكار) ومع ذلك، فقد استقرت العينان على بطني الخاوية، مثل التقارير الطبية التي تقول نفس الشيء. ما علينا!

المهم أن نون كانت هناك بثوبها الفضفاض. وكانت تسبقني بامرأتين. فصرت أتساءل لماذا انتظرت حتى بدأت البشائر؟ وقد كان من الممكن في الشهور الأولى أن تخفي أمر جنينها في زيارة واحدة. وتوصلت إلى أنها تفعل ذلك نكاية بي. ألا تصدقني؟ (كتف يعلو وآخر يهبط قليلا. بينما يدور القلم دورتين بين الأصابع الرفيعة قبلما يسقط على الأوراق).

❖

ذهبت نون وانتظرت دوري الذي لايجيء. فصرت أحدث نفسي بأشياء غريبة. لا أذكرها الآن. بل أذكرها ولكني لن أقولها لك. خجلاً. لكنك لابد تعرفها. قل لي! إنك لابد تعرفها. تعرف أن زهورك البرية هذه تشبه صورة أخرى رأيتها عند أبو المجد. في حجرة الاستقبال الداخلية. هناك

فوق المقعد الجلدي الوحيد باللون البني. كلما ابتعدت عن الباب اقتربت من المقعد. وجلست عليه. تحس بإطار الصورة يلامس قمة رأسك. تعرف ما وجه الشبه بين الصورتين؟ تلك الزهرة الكبيرة التي تميل على عنق الزهرة الصغيرة. مثل عنق الطفل هناك. نفس الاصفرار. نفس الميل. (نفس تلك النظرة المستقرة على وجهي يتلوها أنف معقوف وشفتان مكتنزتان وذقن بارز. وجه كالهلال، في محاولة أخرى لاستنطاقي، ينفرج عن ابتسامة خفيفة. ثم يد تمتد لتطفىء السيجارة التي. صار دخانها مجرد رائحة. حين رحلت الأشباح المرسومة في الفراغ).

رأيت نون فيما بعد بثوب ضيق. تدخل محلاً لملابس الأطفال أخرج منه. حين تلاقينا، صار ثوبي الفضفاض يمتلىء هواء. كنت قد تعودت عليه خاويا. لكني أحسست بشيء ما يتحرك داخلي كحقيقة غائبة. تعرف أني أهوى شراء ملابس الأطفال، فعرائس حجرتي الخلفية كبيرة. مثل هذه مثلا. (ارتفع الحاجبان قليلاً فوق إطار النظارة الأسود. حين أخرجت من حقيبتي شيئاً يشبه العرائس).

فتساءلت. لماذا تدخل نون الآن هنا؟ يضعها القدر دائماً في طريقي. بادلتني ابتساماً بابتسام فبدت عيناها كخطين من خطوط الحبر السميكة. حين افتر فمها القاني عن أسنان مائلة إلى الصفار. رنين خطوتها لازال في أذني حين يلامس حذاؤها الرخام المصقول. سرت في أحشائي أصداء رنين كالجب. (ثم سقطت عينان مثقلتان بالنعاس فوق الأوراق البيضاء فأحسست أن الآوان قد جاء كي أرحل).

تعرف أنها المصادفة. تلعب دائماً دوراً ما كما يأتي في الحكايات. هكذا. تحدث الأشياء التي لابد أن تحدث. فنون التي دخلت الآن طي النسيان في موضع ما من رأسي ماتت في حادث سيارة كنت أقودها. أذكر الحادث كثيرا. أما نون. أذكرها لأنك تسألني. كما كنت أسألها في ذلك اليوم عن سر زيارتها للعيادة. أنت تعرف أني هكذا. أشعر بالرغبة في المشاركة. بين الحين والحين. فهل تعرف بماذا أجابتني؟ عن الطفل الذي ذهب؟ كتلة من اللحم القاني الذي يثير الشفقة. تألمت لأنها لم تستطع أن تخبرني بالمزيد. عن أسرار أخرى لا أعرفها. ولا تعرفها أنت أيضا. (شارب كثيف يكلل الشفتين ورباط عنق حريري يتوارى أسفل الذقن البارد المائل إلى الأمام. أعلى الصدر). فلماذا انحرفت السيارة لتصطدم بافريز الكوبري الواصل بين شاطيء النهر؟ لن أقول لك إنها المصادفة. لأني سمعتها تقول إني مجنونة قيادة. منذ قليل. حين اجتزنا بسرعة إشارات المرور الحمراء. أذكر أن انحرافها تلى مباشرة مشهد الحيوان المسكين الأحمر. الذي لم يستطع أبداً العبور إلى الرصيف المقابل. (زفرة طويلة. واحتكاك القلم بالأوراق في صوت مكتوم). تماماً مثل صرخة نون الأخيرة. صدقني. حين التقيت نون للمرة الأولى على مائدة العشاء هناك. لم أكن أعرف أنها تخطط للزواج من رجل ثري. ولم أكن أعرف أنه ينوي الزواج من غيري. فهل كنت تعرف أنت؟

صرت أرتدي هذا الثوب. وأرتدي أيضاً غطاء رأس مناسباً. ولم لا؟ فلا زلت أشعر بشيء ما يتحرك في أحشائي. حين يمتلىء ثوبي المسترسل بالهواء. أنظر إلى انتفاخه بامتنان. نون؟ نعم كانت تعلم أن انتفاخ ثوبها سببه زوجي. ولكن بماذا كانت ستقول لزوجها هي؟ تفهمني؟ (يد تمتد إلى

الشارب ثم تهبط إلى القلم بعد قليل). وقدر لي أن أعرف هكذا. دون أن تخبرني نون. وإلا فبم تفسر زيارتها للدكتور أبو المجد؟ وتخلصها من الطفل المسكين الذي سلبتني إياه؟ لا. لاتقل مصادفة. فأنا التي أعرف كل شيء. أما أنت فشاربك يحجب عنك الحقيقة. إنني لا أطيق رؤية حيوان مقتول على الطريق. هل تطيق أنت ذلك؟ لم يكن هناك بد من التضحيه بنون التي يشبه شعرها الأصفر فراء الكلب المضرج في دمائه. (ابتسامة متأففة كالتي يعرفها العلماء). ولكن هل كنت تعلم أنت إني سوف أجيبك حين تسألني عن نون؟ بل هى المصادفة. قد قدر لي أن ألتقي بها مثلما التقيت بك على مائدة عشاء. كما قدر لي أن أستمع إلي حديثها كما استمعت أنت إلى حديثي. فماذا أنت فاعل الآن بعد ما علمت بأمر عرائسي التي. تستقر في الحجرة الخلفية؟ لاشيء. لاشيء سوى أننا مثل شخوص حكايات القرن الماضي، حين نجاور الأحداث، نشعر بالرغبة في المشاركة.

نوال

كانت جارتنا نوال سمينة بيضاء وكان في صوتها نبرة خاصة تذكرني بالدجاجة. وكانت قد تعودت أن تسألني كلما رأتني عن حالي وحال البيت. فكنت أرد في اقتضاب وأمضي إلى بعض شأني. متشائمة. يانوال. يانوال حرام عليك هذا والله. انكسر تمثال الفتاة صاحبة الوردة الذي كنت أضعه عند نافذة الحجرة القبلية. يانوال. لماذا كنت اليوم من نصيبي؟

كانت نوال تسير مترجرجة متأرجحة وتشيح بوجهها حين تشاهد رجلاً يصعد السلم أو يدق باب الجيران. فنوال تكره الرجال كما تكره الحسد والدجاج الرومي. في شرفة حجرة ابنها كانت مدينة الدجاج البلدي تزيد طابقاً كل يوم وصارت لها طرق ومسالك وميادين ونافورات حتى أني كنت اصطدم بها كلما نظرت من الشارع إلى شرفة الطابق الثالث. وتلك الرائحة! وبعض الريش المتطاير وأصوات أخرى غير صوت نوال.

أصابني سأم شديد ففتحت النافذة واستندت إلى حافتها ورحت أفكر.

قاطعتني نوال بثوب أحمر زاه زاد من حدة لونها الأبيض وكشف عن ساقين كسيقان الأريكة البلدية. كانت تنادي عليّ من الطريق وتشير بإصبعها الغليظة ناحية شرفة حجرة ابنها. كانت إحدى الدجاجات تسير على سياج الشرفة المعدني بخطى مترددة. وكانت عينا نوال قد صارت بلون ثوبها. يانوال. تبكين يانوال؟ دجاجة واحدة من قبائل الدجاج المشرئب من بين عيدان العشة الهائلة. دجاجة واحدة يانوال؟ أصابني منك سأم شديد.

أغلقت نافذتي. هبطت طابقين. ضربت على الباب بالأيدي وبالأرجل. لم يرد أحد. كانت نوال تصعد مترجرجة سلم الطابق الأول. انتظرتها. كانت نوال الآن كرة حمراء. لافرق بين جلدها وثوبها وكان المفتاح يتدلى من عنقها القاني. اقتربت لاهثة من الباب حتى لامس صدرها المتدلي مقبضه الممدود. فتحت وسقطت على وجهها من هول الموقف.

عبرت فوق جسدها قفزاً واتجهت إلى الشرفة. كانت الدجاجة قد اختفت. وكان صمت خاشع يسود بيت الدجاج.

كنت في بعض الأحيان أشفق على نوال. ابن وحيد وزوج مات منذ سنين. لماذا لاتتزوجين يانوال وتريحين؟ وبدلاً من تربية الدجاج الأحمر... تربين ديكاً منفوش الريش. موفور العافية. يرضيك. مثل زوجي يانوال. لكن نوال كانت تكره الرجال والديوك الرومي. وتفضل الجلوس على ابنها حتى يكبر. وتربية الدجاج حتى يسمن. لكن ابنك لازال طفلاً يانوال فلماذا الانتظار وأنت لازلت في الأربعين. وكانت نوال عندئذ تسألني عن حالي فأرد في اقتضاب وأنهي حديثي معها بنظرة قاسية من طرف عيني اليسرى. ولكني كنت أكمل تفكيري في نوال لحظات أخرى وأبحث لها في ذاكرتي عن الديك المناسب.

فوزية

شرفة مغلقة. مستطيلات زجاجية بيضاء يعلوها عدد من المربعات الصفراء. وتقاطعات من خشب مطلي باللون الأبيض. ستائر لونها بلون البحر عندما يقارب خط الأفق. تنفرج عن شجرة عالية تبدو بين مستطيلين مثل كائن خرافي يحرك أطرافه في طقس ما، أو في صلاة لآلهة غير مرئيين. فوزية تجلس عند مستطيل مغلق. ترقب الشارع عبر مستطيل مفتوح. هدأ الناس واستحالوا في بيوتهم أصناما. بعضهم يتكلم فيصل صوته همهمة إلى أذن فوزية. وبعضهم يشخص في جدار يفصل بين شرفتها وبين الطريق. فوزية تعرف أن الليل حين يسكن تشرع قوى الكون في حركتها السرية المعهودة. وأن الساعات لاتتوقف عن الحركة والناس يجهلون ذلك في سباتهم. فوزية تمد يدها نحو المستطيل المطل على الفراغ لتلمس الهواء الليلي في حركته الدائبة نحو الشرق. وفي الظلام الخفيف الذي لاينيره سوى مصباح أصفر خلف الأشجار العالية. يلمع سطح ساعتها الذهبية المثبتة بإحكام حول رسغها حتى لا يفلت الزمن. فوزية تنظر في ساعتها وترقب حركة عقرب الثواني. ينبئوها الوقت أن الساعة قد اقتربت من الثالثة صباحا. تعود يدها لتستند على حافة المقعد الخشبي. ثم يختفي التماع الساعة الذهبية في ظلمة الشرفة المغلقة.

❖

تصحو فوزية في السادسة صباحا. تعد لنفسها فنجاناً من القهوة وتفترش الأرض استعداداً للصلاة الصباحية. رشفة قهوة ساخنة. الله أكبر بطعم القهوة التركية. ركعتان وتعود إلى الفنجان. تقرأ طالعها وتنظر بين الفينةوالفينة إلى ساعة الحائط المعلقة فوق الفراش. ينتهي طقس القهوة الصباحية في نحو السادسة والنصف. فتكتسي ملامح وجهها خليطاً من الجد والحزم والدهشة

الممزوجة باستعلاء العلماء. ترتدي ملابسها قطعة قطعة أمام المرآة وتختار لون الحذاء المناسب للون ملابسها الداخلية والخارجية ولون القرط ولون غطاء الرأس ولون أحمر الشفاه. تنعكس تنويعات الألوان المختلفة درجاتها على لون بشرتها البيضاء الناعمة. فتبدو فوزية اليوم بلون البحر الهادر، أو بلون رمال الشاطيء الذهبية أو بلون الليل الداكن... أو بلون أشجار الليمون دائمة الاخضرار. عندئذ ترضى عن كامل اتساقها وتسمح لنفسها بالظهور عبر مستطيلات الشرفة. تلقي تحية هادئة على كناس الشارع الذي ينظر إليها في إجلال. وقد تبتسم أيضاً لأم محمد زوجة البواب التي تمنح ثديها للصغير كل صباح أمام باب العمارة الأمامي. تحت بصر الكناس. وتحت بصر فوزية المطلة من شرفتها العالية.

❖

الثامنة. فوزية تطأ بأقدامها أرض الطريق في حذر. تتخذ هيئة الجندي الذاهب تواً للكفاح ضد عدو مجهول. فتمتلك في سيرها المنتظم قلب الشارع والميدان الكبير الذي يفضي إليه وأصحاب المحال المبكرة التي تمر عليها. فوزية كالساعة. ينظر أحدهم في ساعة يده ويضبطها. الثامنة. فوزية تبتسم حين تلمحه يفعل ثم لا تلبث أن تبتلع ابتسامتها وترفع نهديها قليلاً بحركة خلفية من كتفيها وتواصل طريقها حتى محطة الترام القريبة من الميدان. حين يتأخر الترام عن الثامنة والربع تعبر فوزية الشارع لتنتظر سيارة الأجرة بالنفر، التي تأتي عادة فور عبورها الشارع. فتطلب من السائق بحركة رشيقة من يدها أن يتوقف. وتجلس إلى جواره. فوزية لا ترضى إلا بالمقعد الأمامي. بجوار السائق الذي يعرفها ويلقي عليها تحية صباحية مقتضبة لايجرؤ

على أكثر منها طيلة الرحلة. تنظر أمامها معظم الوقت أو تنظر في ساعتها الذهبية بين الحين والحين. وتمتلك الطريق السريع وتمتلك الوقت بحركة خفيفة من أهدابها. قد تطلب فوزية من السائق ألا تتعدى سرعته ستين كيلو متراً في الساعة، فيوميء متعجباً. ويشير إلى أن زبائن السيارة الأجرة دائماً على عجل! ولو كان الأمر بيده، لما قاد هذه السيارة قط، ذهاباً وإياباً إلى وسط المدينة ،ومنها إلى ضاحية مصر الجديدة. فوزية تدير وجهها صوب الطريق وتحاول جاهدة السيطرة على أعصابها حين تصل السرعة إلى تسعين. في أقل من نصف الساعة تصل فوزية إلى عملها وتظل تدور في الشوارع المحيطة حتى تنبئها ساعتها الذهبية أن التاسعة قد حلت. فتطأ بقدمها أعتاب مجمع التحرير.

نافذة مفتوحة في الطابق التاسع. تطل من ناحية على الجامع القريب وتطل من الناحية الأخرى على ستة مكاتب تزدحم بها غرفة فوزية. تجلس عند النافذة وتمسح بيدها على المكتب لتتأكد أن حبات الغبار القادمة من الميدان لم تبلغ حداً يستحيل معه العمل في صباح هذا اليوم. فوزية تنادي رغم كل شيء على الساعي الذي يحضر متباطئاً وفي يده فوطة صفراء داكنة. ينظف المكتب مرة أخيرة ويلقي بتحيته دونما رغبة. يذهب. تخرج فوزية كيساً من البلاستيك النظيف وتقضم جزءاً من السندوتش الذي أعدته خصيصاً ليوم العمل الجديد. في كثير من التفاؤل الذي لايمنعها من أن تتأكد من مرور الوقت، بين الحين والحين، حتى تعود إلى بيتها في نهاية اليوم. حين تنهي فوزية آخر قطعة خبز في طعامها تنادي مرة أخيرة على

الساعي لكي يحضر لها كوباً نظيفاً من الماء تغسل به يديها عند النافذة. تجففهما في منديلها الأبيض ثم تستكين في مقعدها في رضا بالغ يفوق حد الاكتمال. لم تعد مضطرة للتعامل مع الساعي حتى نهاية اليوم. ولم يصل بعد أي من زملائها في العمل، كعادتهم يتكاسلون. أمامها أكثر من نصف الساعة لكي تتأمل عبر نافذتها حركة المرور المستمرة والسيارات المخالفة لقانون عدم الانتظار وتوافد الحافلات التي تقل العاملين بالمجمع أمام الباب الجانبي. فوزية تنتبه إلى دخول زميلتها كوثر فتحييها كما ينبغي. وقد تتبادل معها بضع كلمات مختصرة عن الرحلة والجو والحالة المزاجية لزوجها المشاكس والأولاد العفاريت. كل ما يتبقى من يوم فوزية جزء من التاريخ اليومي الحافل بالرتابة التي قد تصل بها إلى حد السأم. والذي لاتعبر عنه عادة إلا بنظرة خاطفة إلى ساعة يدها الذهبية عندما ينتصف النهار.

❖

فوزية تسدل ستائر الشرفة المغلقة اتقاء لشمس الثالثة. تفتح أزرار قيمصها أو تخلع صدارها وتتخلى عن بعض من انتظام الأشياء حولها فتلقي بنفسها فوق الفراش في خط مائل. تخلع حذاءها في حرص فتنطلق أصابع قدميها خارج الحذاء في الفضاء الفاصل بين الفراش والصوان الملاصق له. يأتيها صوت أمها قادماً من الطرف القصي بالمنزل. تسألها إن كانت قد عادت من الخارج. فتجيب بصوت يجاهد لكيلا يعلو عن الحد المعقول أنها عادت بالفعل. فوزية تبتسم لأنها تشعر أنها لم تعد من الخارج بعد. طنين الحركة الدائبة خارج شرفتها يقول إن الليل بعيد وإن الليل يسبقة العصر ويسبقه المغيب ويسبقه المساء. قد تغفو فوزية بضع دقائق على الفراش وحين تنتبه إلى كونها لم تخلع بعد صدارها تسرع بتغيير ملابسها وارتداء قميص النوم

بأكمامه الطويلة وذيله المطرز ولونه الذي يتناسب مع لون ملابسها الداخلية وخفيها. حين تدق الرابعة، تسرع فوزية إلى المائدة وتشرع في تناول طعامها بنهم معهود. فوزية في الحقيقة تحرص على ألا تتكلم مع أمها على المائدة. لكن أمها تصر دائماً على سؤالها عن يوم العمل منذ لحظة ركوبها المترو حتى لحظة دخولها المنزل. فتحاول فوزية ارضاءها ببعض كلمات مقتضبة على أن تقص عليها التفاصيل بعد المغرب مع كوب الشاي والأريكة المطلة على نافذة الجيران. فوزية تغسل أسنانها بعناية وتغلق باب غرفتها كي تنام. تدق الساعة الرابعة والنصف فتسرع دقات قلب فوزية وتشعر أن نوم العصر جزء من ترف العيش الذي تستحقه سيدة مثلها. تنظر عبر الستائر المسدلة إلى ضياء المربعات الصفراء التي تعلو المستطيلات البيضاء في شرفتها المغلقة، فترى كما يرى النائم زجاج كنائس قوطية وقصور عهود خلت تلتمع خلفه شمس المغيب فيكتسي جلالاً فوق جلاله. فوزية تغمض عينيها وتقرر أن تمنح نفسها قرباناً لإله النوم والأحلام. فيستقبلها إلاهها كملكات الأساطير القديمة، لتروي له قصة يومها المنقضي في حكم الرعايا وتأمل نظام الكون السابح في الملكوت.

حين تغيب الشمس يصبح لون المربعات الصفراء مائلاً للرمادي ولون المستطيلات فضياً. فوزية تفتح الستائر وتدفع مستطيلاً واحداً خارج الشرفة ليصافح وجهها هواء الطريق. تنظر هل أم محمد ترضع وليدها الآن تحت بصر بائع الذرة الذي يستقر في المساء على الرصيف المقابل للبيت؟ نعم. إذن فسوف تطلب منها أن تشتري لها الذرة وترقبها خلف أحد المستطيلات لتعرف مايدور بينها وبين البائع. فوزية تكاد تجزم أن المرأة تخون زوجها مع

الكناس في الصباح ومع بائع الذرة في المساء. ولكنها تحفظ لسانها عن قول سيء ولاتمنع ذهنها عن أن يتفتق من آن لآخر عن عقاب رادع للمرأة. لاتلبث فوزية أن تستبعده لتفكر فيما هو أقسى منه. فوزية لاترضى أن تخاطب زوجة البواب وجها لوجه. تدلي لها بالحقيبة الجلدية الكبيرة التي صارت تستعملها في الأغراض المنزلية المشابهة لتضع فيها أم محمد الذرة وتأخذ منها النقود. فتشعر بأن مقامها العالي لازال عالياً وأن السلم الاجتماعي الذي يفصل بينها وبين زوجة البواب غير قابل للاستخدام. فلا هي تنزل ولا الأخرى تصعد يوماً إليها. فوزية تفكر في علاقة أم محمد بالرجلين وهي تخطو خارج حجرتها لتلتقي بأمها عند الأريكة وتدفع إليها، في ابتسامة غامضة، بالذرة الساخنة. تتناول الأم نصيبها من الذرة ولا تدرك مغزى ابتسامة فوزية. تتحرق شوقاً لمعرفة سبب ابتسامتها لكنها ترجيء سؤالها إلى حين تنتهي فوزية من التهام الذرة بالتناوب مع كوب الشاي الدافيء. فوزية تحكي ماشاهدته هذا الصباح وما لاحظته هذا المساء. فتضرب الأم كفاً بكف وتستزيد ابنتها من حكايات المساء المعتادة قبل أن تخلد إلى الراحة أمام التليفزيون لمشاهدة نشرة التاسعة. فوزية تقرأ الجرائد أمام التليفزيون وتعرف أن برج حظها اليوم كان في أوجه فتنظر في ساعتها الذهبية وتتنظر هدأة الليل القادم. حين تشرع قرى الكون في حركتها السرية المعهودة.

دكان في الوكالة

في دكان كبير. تتلخص الوكالة...

اندفعت عمتي بقامتها القصيرة. المكيرة. وكأنها تعرف المكان منذ سنين. واستقرت يدها فوق كومة من الأقمشة. وعيناها تقول. (بكم؟) ولما عرف الرجل أن هذه المرأة إنما جاءت لتشتري. تمهل قليلاً. وراح يداعب زميلته اللعوب وكأنه يقول(...) ولكني لم أسمع جيدا. فضلت أن أغض بصري. وأركز تفكيري فيما تفعله العمة. مرت بالخارج سلسلة من سيارات النقل الصغيرة تحمل أشياء لم أتبينها جيداً. ولكني تأكدت أننا في السوق الكبير. وأن عمتي، كما قال الرجل لنفسه، قد عقدت العزم على الشراء. في تلك النظرة الثاقبة خلف زجاج النظارة المترب (يوم طويل. والطواف بالسوق عادة لانحرم منها في السنة أبداً. مرتين) واليد المعروقة التي. خبرت كل شيء منذ سنين فلم تعد تبالي بأية خبرة جديدة. في الفضاء الفاصل بين العين الخالية من الرموش واليد التي تآكلت أظافرها شيء ينبيء بأن المعركة لن تلبث أن تبدأ.

دفعت الفتاة بالرجل بعيداً وهزت جزءاً من جسدها. (يهتز على أية حال كلما سارت) وهمست وهي تمر بيدها المدربة على مؤخرته (النص بالنص). فما كان منه إلا أن تجهم.

وبدت على وجهه إمارات التأفف لأني لمحت مؤخرته وهي تهان. تشاغلت بالنظر إلى أرفف الألوان الفاقعة وركزت حاسة السمع مع الركن القصي حيث تقف عمتي. نافذة الصبر.

ولأن البائع يتهادى كالديك فقد بادرته العمة بصوت يثقب طبلة الأذن كالنفير. قائلة (هذا) وأشارت بيدها المعروقة ثانية إلى كومة من الأقمشة المتباينة. وكأنها لاتبغي الشراء وإنما تبغي محاسبته على ذوقه المنحط في اختيار مثل هذه البضاعة المخجلة. أسنان صفراء لاتلمع كثيراً في فم واسع تعود

الأخذ والرد اصطفت في هيئة فكين لامهرب من حدتهما.

فهل اضطربت عمتي؟ بل أسنان أكثر اصفراراً بحكم السن. دفعها لسان زال لونه، في حوار مخجل (بالنسبة لي) عن الثمن. وقبل أن ينطق البائع. كانت عمتي قد شمرت عن ساعديها فبدت أساورها البلاستيكية وكأنها دليل على عفة اليد. لا اللسان. كحال أهل هذا البلد الطيبين والأشرار على حد سواء. ولكنه سارع بالمهادنة وجمع أسنانه في فمه على هيئة ابتسامة غير منتظمة وقال. فهل صاحت؟ أو ألقت بملاءتها السوداء المثقوبة على الأرض؟ أو انتحبت؟ أو حتى مصمصت شفتيها ولوت عنقها وألقت عليه نظره احتقارها المدروسة خصيصاً لهذه المواقف؟ نعم حدث كل هذا مع تعديلات بسيطة صاحبها ضرب الأكف ثم جمع الملاءة وحبكها حول الوسط ثم هز الأكتاف كدليل على نفاذ الصبر (لا الغواية) ثم إلقاء القنبلة الموقوتة الأخيرة متمثلة في حذف نصف الثمن الذي قدمه البائع لصالح معونة الفقراء.

لازلت أمعن النظر في ألوان الأقمشة الساطعة. وأتجاهل الموقف حتى لاتصيبني من عمتي كلمة لا أطيقها. لكنها لم تلبث أن قالتها. (تعالي ياأختي) ولم يتقدم أحد للذود عن حقوق الأخوة فتقدمت أنا وكنت المعنية على أية حال.

وعرفت أن استدعائى على عجل كان من مهام المرحلة الثانية التي غالباً ما تنتهي بلجنة تحكيم خاصة. مكونة من شخصي المتواضع (أو أحد المارة الكرام الذين قد يدفعهم سوء الحظ إلى داخل الدكان في تلك اللحظة الحاسمة). ولأن الكساد يعم. (وكذلك الظلم). فقد وجدت من حقي أن أرفض ووجدت من حقها أيضاً أن تبخل عليّ بالقطعة الموعودة التي تكبدت مشاق يوم السوق من أجلها. فتقدمت. وبحلقت. على أمل أن أخيف

الرجل وأحثه على الموافقة. ليس على ماقالته عمتي ولكن على إنقاذي من براثن العملية التقليدية.

التف ثلاثتنا حول كومة القماش. ووضع كل منا يداً في موضع ما منها. تأكيداً على حب الملكية من جانب البائع وخوفاً من ضياع الهيمنة من جانب عمتي. وحرصاً مني على اختيار القطعة المناسبة منذ البداية. وإلا فليسقط الاستبداد. فهمت عمتي مقصدي وغمزت لي بطرف عين راضية بينما ظلت عينها الثانية على موقفها الأول المتشدد. وظل البائع حائراً بين التصديق وبين (إطالة نفس البيعة) حتى تنفق. أو تزهق دونها الأرواح. حسمت عمتي الأمر حين قالت في تودد. إنها تجهز لعرس ابنتها وإنها سوف تصبح زبونة دائمة عنده إن هو وافق. فهل سال لعاب البائع أمام هذا الوعد الجميل؟ أو بدأ يحسب منذ تلك اللحظة الربح والخسارة في حالة إتمام الزواج أو فشله؟ أو تذكر أن الكساد يعم، وكذلك الظلم، فعقد العزم؟ نعم. هكذا تراخت يد واحدة فوق الكومة بينما راح صاحبها يقسم أيما قسم على أن البيعة خاسرة. ولكنه القلب الطيب. والزبون الذي لابد من تربيته. ليعود. فتراخت يد عمتي في وهج الانتصار. وراحت يدي تتحسس باقي القطع ربما فزت بما هو أفضل من اختياري الأول. وفي ذهني أن عمتي العانس قد لاتعود أبداً إلى الدكان. الذي لابد وأنها قد نسيت الطريق إليه الآن. وأن البائع الواعي استفتح يومه ببيعة لابأس بها. فأل طيب في أيام طويلة مثل أيامنا هذه. وأن الفتاة اللعوب التي كانت تستند إلى باب الدكان وفي ساقها اليسرى كدمة زرقاء. والتي لابد سمعت كل ما كان وهي تلوك اللبان الذكر. لن تلبث أن تقترب منا. لتهنئتنا بالشراء دونما اكثرات كبير. ولتحكم أوراق الجرائد حول الكومة الصغيرة. بينما تدفع عمتي بجنيهات متآكله إلى البائع المتوكل. وفي ذهني أيضاً خطة تقضي بتوزيع الأقمشة على أخوتي حسب الأهمية. على أن تعلو أهميتي على أهميتهم جميعا. مع الإعداد لشكر

عمتي بالطريقة المعهودة. التي تبدأ بتنظيف حجرتها المصونة كل صباح وتنتهي برش بيت الدجاج بالماء النظيف قبل العصر حتى يحين موعد السوق القادم. في الشتاء القادم ككل شتاء. بلسعة برده المعهودة ككل العهود. أو حين يحلو لعمتي ممارسة الشراء لأغراض التسلية. التي غالباً ما تنتهي بآلام كبيرة في باطن القدم ولعنات كثيرة على الدكاكين. وعلى أصحاب الدكاكين التي منها سريعاً نعود.

أغنية عن الوطن

... أو كالحب. الذي تضيع ملامحه في طيات لحظات تمر هكذا كالأخريات. أو كالحب. الذي يتسلل إلى أحد الجدارن المحيطة يحفر عليه أسماءً وقلوباً ساذجة. كالحيرة الأولى. أو كالحب الذي يختنق بين ستار وستار يتدلى فوق أعين السائرات نياما. كالحب في الله. أو كالحب في الكهوف الملتوية. الحصينة بالخفر المدججين... كالحب المسروق تحت أعين الداعرين. خوفاً من ألسنتهم التي تلوك كل شيء.

❖

كل شيء يتهاوى. كقطرة ماء على منحدر يقسو. أغسل وجهي ولا أنسى الأنف البارز كالتحدي. وأمر على عنقي مروراً فتنساب قطرات إلى ما بين نهدي. ويرتعد جوفي حين تتنابني تلك الرغبة في التباكي. الصنبور مغلق الآن. وعيناي على المرآة لاترى. أغنية هناك عن الوطن تقول أشياء سمعتها من قبل. بنصف أذن. أستمع إليها الآن حين أتجه بعيني إلى النافذة. يصدر عنها ذلك النغم البعيد بينما ترتسم في المرآة صورة ضفيرتي المعقوصة. كالطفولة. أو كالرغبة في استرجاع الزمن المتراكم. أغلق الباب خلفي وأترك الصنبور وحيداً. عن عمد.

❖

تفرغ أذني من تلك النغمة البعيدة التي. داهمتني. وتستسلم للأصوات الأخرى التي تأتي وتروح. المنشفة على وجهي. خطواتي عند العتبات. أنفاس لاهثة أحاول تنظيمها بإرادتي. الواهنة. يدي تمر بين شقوق الجدار التي

لايراها سواي. راكدة. وصوت آخر يتصاعد من جوفي كالغثيان الذي يأتي الآن.

❖

الآن أفرغ إلى نفسي. حين تفرغ مني أشياء اليوم. أصحو على صوتي. وصورتي المتحركة. هذه أنا التي تكون. نصف وعي. نصف كون. أتحسسنى في كثافة الهواء المحيط. وأحدث نفسي بما لا أقوله لغيرها.

❖

اليوم جاءتني زوجة الحمّال. أخذت بعضاً مما تيسر في البيت. وبعضاً من أحاديثي المعتادة. حين ألعب دورا كهذا. يشبه كلمات أغنية الوطن. وجاءتني صديقة في عينيها حزن لم أحتمله. ولكني تحاملت ودارت الملعقة في كوب الشاي. فاتحة لحديث لم ينته بعد. وجاءتني في المساء امرأة أخرى. صرت لا أعرف أنها أمي. وكانت في جعبتها تلك الأخبار التي يلوكونها بين رشفة وأخرى. لكني احتسيت كوبي الثاني وأنا أنصت إلى صوتي. الآتي من القرار. ثم جاءني الليل. ثقيلا يحبو. وفكرت أن الليل سلحفاة لايسبقها سوى تسلل الفجر إلى نافذتي.

❖

نظرتْ إليَّ صديقتي وقالت إن الأوان قد آن لكي ترحل. ثم سقطت نظرتها فى كوب الشاي الفارغ وأدارت الملعقة في الفراغ الذي صار رنينا. حين رفعت نظرتها الحادة إلى وجهي الصامت، كانت عيناى تتأملان جزءاً من آلام المسيح المعلقة على الجدار الباهت. إصبع تمتد في الفضاء مشيرة إلى وجه المرأة الراكعة عند الصليب. (زوجة الحمال هذه؟ أم أنني أحسبها كذلك؟) عند باب الغرفة وضعت صديقتي قدماً في الحذاء الأسود وقدما أخرى. تلتها خطوات في الممر. والباب المغلق الآن على كلمة وداع مقتضبة. كوبان فارغان من الحب.

❖

ثم نَظَرتْ إليَّ زوجة الحَّمال بعين تعودت الانكسار. حين ترغب في شيء مما أعطتني الظروف وصارت تثرثر. ظهره الذي يحمل عليه قطع الأثاث (الثمينة؟). ويداه اللتان ترتعشان حين ينتهي النهار. أو يكاد. (وفي بداية اليوم؟) والجارة التي تشاركها نفس الحائط والرجل. (معقول؟) والابنة التي ذهبت إلى المدرسة ولم تعد (من يومها؟). نعم. فمنذ ذلك الحين انقطعت الأخبار وقيل لم تتزوج. لم يعد من أحد سوانا. فاكتفينا بما كان. هي بالصندوق المغلق على الأسرار. وأنا هكذا. وكنت أقول (في حب الوطن؟) حين تغلق الباب خلفها أخلو إلى نفسي لأمارس حبها.

❖

قبل أن أفتح باباً تطالعني خلفه عينا أمي أعددت لها مقعداً وثيرا. قريباً من النافذة. وأعددت لنفسي مقعداً آخر لاترى منه وجهي. صنعت لنا كوبين من الشاي كطقوس اللقاء المعتادة. واسترخيت في الضوء. نصف وجهي معتم. نصف عقلي بين شفتيها. أغترب عنها بين حدي قصة. وأعود إلى نقطة سكون تسبق قصة جديدة. حين انتهينا من طقوس احتسائنا صارت تبحث عن سبب ابتعادي. وصرت أزداد ابتعادا. هكذا. ذهبت هي إلى حيث تنظف الأكواب الفارغة منا. وذهبت أنا إلى حيث الماء المنساب من صنبور الحمام. تحت المرآة الصابرة على صوتي المكتوم.

❖

وبعد أن أغلق بابي في النهاية. أجدني أخترق كثافة الهواء المحيط. أحدث نفسي بما لا أقوله لغيرها.

وأفتش في شقوق الجدار عن معنى الوطن الذي. طالعني في الصباح بصوت قادم من بعيد. أجدني أنصت في تراكم الأصوات إلى صرير باب جديد. أخطو فوق عتباته فأعرف أنه أنا التي تخطو.

❖ ❖ ❖

أغنية قديمة

«لما الهكسوس دخلوا مصر كان أحمس نايم تحت الشجرة وحاطط رجل على رجل» قالت جدتي وهي تضع ساقاً على ساق بصعوبة. سمعت صوت عظامها الضامرة تحت أكوام الشحم تطرقع. ابتسمت. «جرى واحد صاحبه يقول له. نزل رجل على الأرض وحط الرجل الثانية عليها». مرة ثانية طرقع العظم واهتز الشحم وابتسمت. وكنت أنا أموت غيظاً في انتظار بقية الحكاية وهي لاتبالي.

كانت جدتي هكذا. حين تتذكر.

«كان صاحبه قلقان وحران لأن الشمس كانت في وسط السماء» صنعت بأصابعها دائرة ومدتها في الهواء أمام أنفي القاني. «الهكسوس دخلوا مصر يا أحمس باشا... أقولك ايه بس؟ والله ياأخي انت حيرتني قوي خالص».

كان أنفي الآن قد بلغ حداً لايحتمل من الاحمرار.

«لما الهكسوس دخلوا مصر كان أحمس نايم تحت النخلة و...»

«تحت الشجرة».

«... تحت الشجرة وحاطط رجل على رجل».

وقلبما تضع جدتي ساقاً على ساق كما تفعل كل مرة تبدأ فيها حكايتها كنت قد تسللت من الغرفة وتركت الشمعة مكاني.

«تحرك أحمس في مكانه وقال لصاحبه كلمة. أنا ما سمعتش الكلمة لكن أحمس قال لي بعد خروج الهكسوس. قال لي: يومها قلت لصاحبي بكرة نحارب. ونام».

«نام؟»

«نام. وشاف في الحلم الهكسوس داخلين مصر بجيش جرار وخارجين من مصر شايلين عارهم على سيوفهم. اطمن وقال بكرة جى».

كلما انقطع التيار الكهربي عن بيتنا أضاءت جدتي شمعة. وقصت علي قصة أحمس والهكسوس.

عدت من المدرسة والدموع تترقرق في عيني... دخلت حجرة جدتي فوجدتها راقدة على الفراش. تهز قدميها كأنما تدندن بأغنية قديمة. وقفت عند رأسها حتى ترى دموعي. جفلت.

«أحمس كان صاحي وكان بطل وماكانش فيه شجرة».

«وماله ياحبيبى. قول لي بقه ليه تبكي؟»

نظرت إليها متعجباً. توقفت دموعي في منتصف الطريق واحمر انفي.

«لما الهكسوس دخلوا مصر كان أحمس صاحي وحاطط رجل على رجل وكانت القهوة مليانه ناس».

نظرت إليّ جدتي في ترقب ولما ابتسمت لها ابتسمت لي.

«جري واحد صاحبه يقول له».

❖

كانت جدتي تعرف قصة الهكسوس عن ظهر قلب وتعرف أحمس أيضاً وكثيراً ما التقت به في الطريق. قالت لي ذات مرة إنه غازلها وإنها لم ترد عليه غزله وإنما أسرعت في اتجاه الميدان. كانت جدتي تكره الهكسوس وأنا

أيضاً. وكانت تحب أحمس. وأنا أيضاً. وكان أحمس يحب الجلوس على القهوة ويحب الحياة. لذلك لم يكن يريد أن يحارب الهكسوس. لأن الله معه. هكذا رأى في الحلم. وكان ينتظر. وعندما طرد الفلاحون الهكسوس كان أحمس سعيداً. كان أصحابه يهنئونه كلما مروا بالقهوة ويدعون له بالسلامة. ألم ير كل شئ في الحلم. ألم يكن هو صانع الأحلام؟ ذا الوجه البشوش؟ والقلب الطيب؟

❖

اتجهت صوب الميدان لا ألوي على شيء.

قابلتني القهوة فجلست وتذكرت «المرحومة». كانت تحب الميدان. تدور فيه عدة مرات ثم تعود إلى البيت لتقبع في حجرتها. تنتظر.

جاء خليل متجهماً وسألني. قلت له إني لم أسمع شيئاً في أخبار التاسعة وعندما انقطع التيار الكهربائي جئت إلى هنا. هذا كل ماحدث.

ثار خليل واتهمني. أجبته أن كل ما يشغلني هو قبري الذي أبنيه في قريتنا بجوار قبر المرحومة. ولم يعد معي ما يكفي لإكماله.

هدأ خليل حين سمع. وأخبرني. قلت له: بكرة نحارب.

❖

رأيت فيما يرى النائم أن أولاد اللئيمة دخلوا مصر وأني كنت أضع ساقاً على ساق والقهوة تمتلىء بالأصوات. وجاءت المرحومة كعادتها. دارت في الميدان عدة مرات. وفي المرة الأخيرة اقتربت مني وربتت على كتفي وراحت تغني أغنية قديمة.

عندئذ اطمئن قلبي وصار الناس يدعون لي بالسلامة.

المحتويات

- إهداء ٧
- لحت متكرر ٩
- تلك الروائح ١٧
- أرصفة ٢١
- ونوافذ ٣١
- استقالة ٤٧
- شبيكة ٥٣
- بضعة آلاف أخرى كالجنيهات أو كالموتى ٥٩
- يحدث في الماضي. أن ترغب في شيء من المشاركة ٦٥
- نوال ٧٣
- فوزية ٧٧
- دكان في الوكالة ٨٥
- أغنية عن الوطن ٩١
- أغنية قديمة ٩٧

❖

رقم الإيداع ٩٥/ ٧٢٣٧
الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 70 - 6

زمن الأبيض والأسود

لا ترسم مي التلمساني واقعاً في العالم، إنها تقدم لقطات منفصلة كل منها أصيلة، ثم تجمع إحداها للأخرى كما في مونتاج الفيلم، لتقدم نصاً متتابعاً، أثره الشعرى يعادل متعته السينمائية.

نص سينمائي، ليس لأنه حكىٌ عين فحسب ولكن لأنه يبني عالماً ينتمي بصرياً ودرامياً لسينما الأبيض والأسود وإن كانت موضوعاته تضرب بجذورها في زمننا الحاضر، أما فروعه فترفرف في زمن الأسطورة. أسطورة واقع يومي يعيشه فرد بطل –ضد أو أسطورة حكاية شعبية في زمننا.

عند ميّ تلتقى السينما والأسطورة في الحلم. فهى تجعل من شخوصها عناصر أسطورية تتحرك في أعماقنا كظلالٍ على شاشة بيضاء.

دار شرقيات للنشر و التوزيع